فانوس مکسور

obeikandl.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية
دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الإدارة

المحاسب

أحمد التلاوي

الناشر

سليمان القلشي

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى
الكتاب: فانوس مكسور
المؤلف: محمد العون
تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية
تصميم الغلاف: إسلام الشماع
إخراج : محمود رمضان
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٩٩٤٨
الترقيم الدولي: ٨-١٣-٦٦٠٥-٩٧٧-٩٧٨

العنوان : ١شارع ابن مروان - أمام مجلس الدولة الدقي
التليفون : 02/37483557
email : delta4books@gmail.com

obeikandl.com

محمد العون

فانوس مكسور

مجموعة قصصية

دلتا للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

صاحب المنصب الرفيع

obeikandl.com

بـدا الرجـل برغـم ملامحـه الجامـدة وجسـده الربعـة المتـين البنيـان ودودًا منـذ اللحظـات الأولى ، مـر عـلى جميـع السـكان ليقـدم نفسـه ويتعـرف عـلى الرجـال باعتبـاره الجـار الجديـد لهـم ، أمـا السـيدات فـكان يحييهـن باحترام بالـغ إذا مـا التقـى بإحداهـن أمـام المصعـد أو عـلى السـلم ، مقدمًـا زوجتـه إذا كانـت بصحبتـه ويـترك لهـا الفرصـة لتتعـرف عـلى جاراتهـا الجـدد ، لكنـه لا يمانـع أن يشـاركهن الحديـث كأنـه أخ أو قريـب للسـيدة الجـارة ، فهـو ينتمـى لهـذا النـوع المتكلـم مـن البـشر الذيـن يجـدون دائـمًا موضوعًـا مـا للـكلام معـك أو مـع غـيرك ، ويفعـل ذلـك بلباقـة وحميميـة وبثقـة فى النفـس تليـق بمنصبـه الرفيـع فى الدولـة.

عمارتنـا عريقـة وتقـع فى أرقـى أحيـاء المدينـة ، لكنهـا مـع ذلـك تعانـى الكثـير مـن المشـاكل،خاصة تلـك المتعلقـة بالصيانـة الدوريـة ، وكنـا برغـم رغبتنـا فى الإصـلاح نتقاعـس ولا نقـدر عـلى الاتفـاق عـلى الحـل المناسـب ، لأن جميـع الحلـول تتطلـب دفـع المـال ، وهـو الأمـر الـذى يـؤدى بالجميـع إلى التراجـع أو المراوغـة والتسـويف خشـية الغرامـة وإخـراج المـال فى النهايـة ، ولم يكـن منـا نحـن السـكان القدامـى مـن يرغـب فى المبـادرة إلى حشـد الآخريـن ودفعهـم ، كلٌ مشـغول بنفسـه غـارق فى همومـه.

الجـار الجديـد أخـبر الجميـع وبـلا موار بـة أن السـكن فى هـذه العـمارة كان أحـد أحـلام حياتـه ، وأن سـعادته لا توصـف بتحقـق هـذا الحلـم ، وجـه الدعـوة إلى الجـيران لحضـور حفـل بسـيط فى شـقته ، وقـد فوجئنـا بمظاهـر الفخامـة والثـراء ، ليـس فقـط فى الأثـاث والسـتائر والنجـف والسـجاد واللوحـات المعلقـة عـلى الجـدران ، ولكـن التجديـدات التـى أجريـت عـلى أساسـيات الشـقة،الحوائط والأرضيـات الرخـام والحـمام المـترف ، كانـت المقارنـة مفجعـة ، أدركنـا سـاعتها أن شـقتنا التـى نعتبرهـا فاخـرة وراقيـة

المستوى ، قديمة ومتهالكة وأننا نمتلك الصيت دون الغنى.

– يا جماعة أنتم ناس محترمون ، ولا يصح أن تتركوا العمارة فى هذه الحالة من الإهمال والفوضى !

هكذا بدأ حديثه معنا ، ثم اقترح أن ندفع مبلغًا شهريًا تحت بند الصيانة ، وأنه بعد ذلك سيتصرف ويعالج شئون العمارة بطريقته ، ولما كان المبلغ الذى اقترحه بسيطًا ، فقد وافقنا جميعًا ونحن نلقى عليه بالمسئولية ونتنفس الصعداء.

انتعشت العمارة وبدأت تستعيد رونقها والرجل يبذل جهده ويتحمل أعباء الصيانة والإصلاح والنظافة بكل همة ، ويتعامل مع عمال الكهرباء والسباكة والحدادة والنجارة وفق جدول وضعه وأشرف على تنفيذه بكل الدقة ، مما جعلنا لا نتردد فى دفع المبالغ الإضافية التى كان يطلبها ، لم يكن يطلب منا مباشرة ، بل يضع ورقة بجوار صندوق البريد عند المدخل ، يكتب فيها التكاليف بالتفصيل ، ثمن معدات و أدوات لوازم الإصلاح من أسلاك ومواسير وبلاط ومواد طلاء وخلافه وأجور العمال ثم المبلغ المطلوب من كل شقة ، وكنا ندفع دون نقاش ..

عرفنا خبر الترقية قبل إذاعته فى الصحف ووسائل الإعلام ، نُصب كشك حراسة أمام مدخل العمارة ، وبدأ الحرس فى التعرف علينا بطريقتهم الخاصة ، فحص بطاقات الهوية وتسجيل رقم الشقة والوظيفة قبل السماح لأى منا بالمرور ، أما ضيوفنا فقد تعرضوا لمضايقات وصلت إلى حد المعاملة المهينة !

لكن المشكلة الأكبر كانت فى منع عمال الخدمات ومحلات الخضر والفاكهة و البقالة والمكواة ، تقريبًا تعرضوا جميعهم للزجر وللضرب أحيانًا و حُرم عليهم مجرد الاقتراب من بوابة العمارة ؟

بالطبع كان لابد أن نكلم جارنا العزيز ، لكنه استمع إلينا واجمًا

ثم أقسم برحمة أمه أنه لا يعلم بكل هذه الإجراءات التعسفية ، بل إنه يرفضها ولم يرد الحراسة من الأصل و طلب مرارًا أن يعفوه منها ، لكنهم رفضوا ، وأنه لا يستطيع أن يصدر أوامر إلى الأمن ، لكنه وعدنا فى النهاية وهو يبدى أسفه أن يتكلم معهم فيما يخص المعاملة السيئة لجيرانه ، فهذا ما لا يرضاه أبدًا ولن يسمح به.

كانت الأخبار تصل إلينا من بعيد وعلى حذر ، تتسرب على صورة إشاعات ، تتناقلها ألسنة الناس وأحاديثهم حتى أصبح لها يقين الحقيقة ، فى البداية لم أكن أميل إلى تصديق هذه الإشاعات التى تلوك سمعة جارنا العزيز وذمته المالية وأنه .. حرامى كبير ، يستغل منصبه فى عقد الصفقات والبيع والشراء !

عمليات إصلاح العمارة وتجديدها كانت تتوالى عملية أثر عملية ، والمبالغ التى يطلبها منا تتزايد ، حتى شككت أنا شخصيًا فيه ، ربما لا يدفع نصيبه هو فى هذه العمليات ويحملنا نحن كافة التكاليف ، بل لعله يقتطع منها أيضًا، من يدرينا ؟ فلم يكن واحد منا يطلع على أى شىء يتعلق بتفاصيل هذه العمليات من مشتريات وأجور عمال ونفقات ومصروفات سوى ما يكتبه هو بنفسه.

لكن الأمر لم يخلُ من الاعتراض والمحاسبة خاصة عندما تحول الأمر إلى ما يشبه الفضيحة ، إذ إن الرجل ضاق من طفح مجارى الصرف المستمر فى منور العمارة وتراكم المياه الآسنة ، وهو شىء اعتدنا عليه.

كنا نحضر سباكًا كل عدة أشهر عندما يتجاوز الطفح برائحته العفنة وأسراب الناموس التى يجلبها طاقتنا على الاحتمال ، أما هو فقد تابع المسألة وتوصل إلى معرفة السبب الذى ظللنا نحن رجال العمارة نجهله لسنوات طويلة ، فقام بطريقته الحازمة بكتابة ورقة بخط واضح وكبير قال فيها ، برجاء من سيدات العمارة الكريمات

عـدم إلقـاء الفـوط الصحيـة وقطـع الملابـس الداخليـة القديمـة فى المراحيـض حيـث أن ذلـك يتسـبب فى سـد المجـارى وطفـح البالوعـات !

أحـد جيراننـا وهـو إنسـان مترفـع يعمـل طبيبًـا أو مهندسًـا لا أدرى ، قابلـه مـرة فى مدخـل العـمارة وسـأله عـن هـذه المبالـغ التـى ندفعهـا وأنهـا أصبحـت عبئًـا عـلى السـكان ، وأنـه يسـتطيع إذا كان يرغـب لهـذه الدرجـة فى تجديـد العـمارة أن يسـتعمل نفـوذه و سـلطاته دون أن يكلـف السـكان ، فهـم كانـوا راضـين وسـعداء بعمارتهـم مـن قبـل أن تأتى سـيادتك وتسـكن معنـا !

فوجـئ جارنـا بهـذا الـكلام وصُـدم تمامًـا ، فقـد كان لا يتوقـف إذا قابـل واحـدًا منـا عـن إبـداء سروره بـما وصـل إليـه حـال العـمارة بفضـل مـا قـام بـه ، مشـيرًا إلى بـلاط المدخـل الجديـد وإلى جـدران السـلم التـى طليت بالبلاسـتيك الأزرق وإلى عـددٍ مـن درجـات السـلم الرخاميـة التـى أعيـد ترميمهـا وتثبيتهـا أو اسـتبدلت بأخـرى جديـدة مـن نفـس نـوع الرخـام ، هـذا إلى غـير ذلـك مـن تغيـير وإصـلاح مواسـير الميـاه و الـصرف التـى كانـت ترشـح وتنمـو عليهـا الطحالـب .

قال والدهشة لا الغضب تعلو وجهه:

– هـل تريدنـى أن أصرف مـن أمـوال الدولـة عـلى إصـلاح العـمارة ؟! لم أتصـور أن أسـمع هـذا الـكلام مـن رجـل محـترم مثلـك!

ثـم تركـه وانـصرف وهـو فى حالـة غيـظ شـديدة ، يسـب ويلعـن متوعـدًا ، وتكـرر هـذا الموقـف مـع عـدد مـن الجـيران رجـال و سـيدات حتـى كاد الرجـل أن يُجـن.

بـدا واضحًـا أنـه وضـع خطـة مسـبقة لتجديـد العـمارة ، وأصر عـلى تنفيذهـا حتـى النهايـة مهـما كلفـه الأمـر ، أو بمعنـى أدق مهـما كلفنـا نحـن ، لكنـه أصبـح أكثـر تعنتًـا و عصبيـة وأخـذ يتخـلى عـن بشاشـته الأولى.

فبعـد أن كان يقابـل الواحـد منـا مبتسـمًا ودودًا ويـردد أن العـمارة

وسكانها وش الخير عليه وأنه سيعمل ما بوسعه من أجل جيرانه ، أصبح متجهمًا يرد التحية بتحفظ ولا يقف ليتبادل الحديث معنا كسابق عهده ، بل تحولت العلاقة بيننا وبينه إلى حالة شبه عدائية ، جميعنا فى جانب وهو وعائلته فى جانب.

ولم تفلح بعض المحاولات التى قامت بها زوجته لمد الجسور مع زوجاتنا وزيارتهن خاصة فى المناسبات ، فى تخفيف حالة العداء غير المعلن والذى نتعمد جميعًا إخفاءه والتغاضى عنه كأنه شىء لا يعنينا ، لكن النفوس كانت محملة به ، لم تكن فقط تلك المبالغ الشهرية التى ندفعها مرغمين بدافع الخجل والكبرياء لإرضاء رغبته المهووسة فى إعادة الرونق لعمارتنا القديمة ، بعد أن تقدم بنا العمر وغادرنا معظم أبنائنا إلى مساكنهم الجديدة الشابة مثلهم ، ولم يعد بنا حاجة لاستنزاف أموالنا فى شىء لا طائل منه ..

لكن الأمر الذى أثقل علينا وجعل جيرته شقاءً مستمرًا كان إجراءات الأمن والحراسة التى تزايدت بشكل مزعج حتى أصبح أقرباؤنا وأصدقاؤنا يخشون زيارتنا ، مما جعلنا فى عزلة ، لكن المضحك أن هؤلاء الأقارب والأصدقاء أنفسهم كانوا يطلبون منا التوسط لديه لقضاء مصالحهم.

قائمة طلبات لا تنتهى ، تملى علينا صباحًا ومساءً بالتليفون مصحوبة بالتوسل والرجاء الحار ، والبعض تمادى إلى عرض مبالغ مالية استنادًا لسمعة جارنا التى ليست فوق مستوى الشبهات ، ذهلت لضخامة تلك المبالغ وللبساطة التى تعرض بها أيضًا !

عبثًا كان الواحد منا ينفى ويدفع عن نفسه تهمة استغلال علاقة الجيرة ، وأن الرجل بعيد عنا وأن علاقتنا به سطحية لا تسمح بطلب واسطة أو خدمات من أى نوع ، وأننا لم نستفد من هذه الصلة لا

لأنفسنا ولا لأولادنا ، وأن الرجل لا يحب أن يتكلم معنا فيما يخص وظيفته من الأصل.

لكن لم يصدقنا أحد من الأصدقاء والمعارف واعتقدوا أننا نضن عليهم بالخير الذى يأتى من وراء هذه الجيرة السعيدة ونحتكره لأنفسنا دونهم ، مما زاد فى ابتعادهم عنا وساعد على نشوء جفوة وصلت إلى حد القطيعة تقريبًا.

***

التحول الذى أصاب جارنا الذى كان عزيزًا ، بدأ تدريجيًا ثم تصاعد بمرور السنين مع رسوخه فى السلطة ، لم يتخل عن بشاشته ودماثته ولم يصبح متجهمًا متحفظًا فقط ، لكنه انقلب إلى النقيض ، التعالى والتكبر ثم .. البذاءة واستعمال الشتائم بعصبية زائدة عن الحد لأبسط الأشياء ، كتأخر المصعد لثوان أثناء صعوده أو هبوطه ، يعنف البوابين ويسبهم ، ويلقى باللوم على سكان العمارة الذين لا يعرفون معنى النظافة والنظام.

بالطبع كنا نتلقى هذا الكلام بالدهشة والصمت ونحن نتمنى أن يسعدنا الحظ ويرحل عنا إلى أحد قصوره العديدة المنتشرة فى ضواحى المدينة ، ثلاثة قصور فارهة أو أربعة حسب ما يذكر فى صحف المعارضة ، يبدو أنه مهتم بالعمارة الفخمة عمومًا ، ويبحث عنها فى أرجاء المدينة وضواحيها ، لا بد أنه اعترف أنه يتمتع بذوق محب للجمال والأناقة خاصة فيما يتعلق بسكنه أو مظهره.

بالطبع توقفنا عن دفع المبلغ الشهرى بعد انتهاء تجديد العمارة ، إلا مبلغ بسيط للصيانة ، كنا نتعجب من قدرته على متابعة هذه الأعمال ، وحرصه على تنفيذها والإشراف عليها على الرغم من مشاغله وأعباء وظيفته التى لا تنتهى كما كنا نسمع ، ونرى بأنفسنا جموع المشاهير من كل صنف وهم يأتون لزيارته ، من الفنانين والفنانات ورجال

الصحافة والإعلام والأدب إلى زملائه أهل السلطة ، الذين يسدون الشارع بمواكبهم وأفراد حراستهم ينتشرون كالجراد فى مدخل العمارة ويتفحصون الواحد منا إذا تصادف نزوله أو دخوله بعيون مستريبة متوجسة شرًّا.

ولم يكن ينقذنا منهم سوى رجال الأمن الملازمين للعمارة ، كانوا يشيرون بكلمة مقتضبة أو بإشارة سريعة معرفين بهويتنا كسكان ، فيتنازلون ويسمحون لنا بالصعود إلى بيوتنا !

الطريف أن الرجال المحروسين الذين كنا نسمع عن فسادهم وتسلطهم وذممهم الخربة ، كانوا فى غاية اللطف وتعاملوا معنا ببشاشة واحترام إذا صادفنا واحدًا منهم أمام المصعد أو عند المدخل بل إن معظمهم كان يفسح لنا الطريق مظهرًا غاية التواضع ، المدهش أن أغلبهم كان يأتى بملابس بسيطة ، قمصان وبلوفرات دون رابطة عنق ، فيبدون كرجال عاديين.

انتهى كل شىء كما بدأ فجأة ، غادر جارنا العمارة بعد أن ضاقت عليه شقته ، ولم تعد تتسع لمعاونيه ولحاشيته المتزايدة وخدمه الكثيرين ، رأينا كشك الحراسة وهو يزال عن مدخل العمارة ورجال الأمن يجمعون أغراضهم ويرحلون بسياراتهم الرسمية التى ظلت مرابطة فى الشارع لسنوات مرت علينا كدهر طويل.

فى انتظار الجرس

obeikandl.com

حان الوقت ، العمر أصبح خلفى ولم يعد هناك ما أخشاه ، أولادى تزوجوا بل وأنجبوا أيضًا، استقلوا بحياتهم ونجحوا إلى الحد الذى يرضينى تمامًا ، كانوا نقطة ضعفى وهم صغار ، خوفى الدائم عليهم حجمنى وألجم لسانى وقلمى ، فلم أتكلم ولم أكتب إلا فى حدود المسموح به.

كنت أبتعد عن أى تنظيم أو حتى نشاط مهما كان بسيطًا إذا شعرت فيه بأى تجرؤ أو مناوئة للسلطة ، والحقيقة أننى لم أكن مغاليًا فى ذلك فدائمًا ما كان يصدق حدسى ، فهؤلاء الزملاء الذين تكلموا وأخلصوا النصح باعتبار أنهم مثقفو البلد ومفكروه ، سواء هاجموا نظام الحكم أو لم يهاجموه ، سرعان ما استقبلتهم الدولة فى سجونها ومعتقلاتها حيث أمضوا زهرة شبابهم ونالوا من صنوف الإهانة والتنكيل والإذلال ما لا يمكن وصفه.

بعضهم خرج محطمًا نفسيًا وجسديًا فى حالة تصعب على الكافر ، حتى احتاج الأمر لسنوات أخرى ليستعيدوا توازنهم النفسى ويستردوا موهبتهم فى الإبداع الأدبى ، وآخرون وهذا ما لا يمكننى فهمه أو استيعابه خرجوا أكثر قوة وأشد صلابة مما دخلوا ، وواصلوا مسيرتهم دون أى تأثر كأنهم كانوا فى رحلة أو تجربة عادية من تجارب الحياة ، تجاوزوها كأنها لم تكن !

بينما كنت أقشعر عند سماع ذكرياتهم عن تلك الفترة الرهيبة وما لاقوه فيها ، وربما أقضى أيامًا لا أستطيع النوم من الأحلام المفزعة والكوابيس التى تهاجمنى طوال الليل ، على الرغم أن منهم من كان يحكى وهذا شىء عجيب وهو يضحك كأنه يلقى نكتة أو طرفة عما حدث له فى سنوات الاعتقال ! ولم أكن أرى فى الأمر ما يدعو

للضحك على الإطلاق ، لكننى كنت مع ذلك أجاريهم وأصطنع الضحك ، وأتخذ مظهر اللامبالى وأوافقهم على أن تلك التجربة على الرغم من مرارتها ، من التجارب الثرية فى الحياة وأنها معين هائل للخبرة الإنسانية أنضجتهم كمبدعين ..

كنت أقول هذا الكلام الفارغ لأواسيهم وأهون عليهم ولأدفع عن نفسى تهمة الجبن والتخاذل فى الوقت نفسه ، مع أن أوصالى كانت تصطك رعبًا فى تلك الجلسات التى كانت تجمعنا بعد الإفراج عنهم.

فكلمة السجن أو المعتقل تفزعنى ، لا أطيق أن يغلق علىَّ باب وأظل حبيس الجدران طوال اليوم ، ذلك يكفى ليصيبنى بالجنون ، ناهيك عن إجبار المرء على معاشرة أفراد بعينهم ومشاركتهم الطعام والنوم إلى آخر هذه الأشياء البغيضة التى لا تطاق.

أستطيع الآن أن أقول كلمتى للتاريخ بعد هذا العمر الطويل ، رأيت الكثير وسمعت وعرفت من أشخاص أثق بهم أكثر بكثير مما رأيت ، كنت قريبًا من الدهاليز السرية بحكم اشتغالى بالأدب منذ مطلع العشرينيات من عمرى واتصالى الوثيق بالصحافة والصحفيين حيث تتجمع كل أسرار الدولة وأخبار المجتمع وكبار المسئولين ، برغم أننى لم أعمل يومًا بالصحافة ، لم أكن صحفيًا ولا أستطيع.

كنت أديبًا منذ البداية ، أكتب القصص والروايات ، وأنشر أعمالى فى الصحف والمجلات ، وأكتب المقالات عندما يعن لى ذلك أو عندما أرغب فى التعبير عن رأى معين أو إذا طلب أحد أصدقائى الصحفيين أن أكتب عن موضوع ما مقُالا أو سلسلة مقالات تنشر تباعًا ، لكن فى كل هذا كنت دائمًا فى غاية الحذر ، أطبق قاعدة ذهبية تعلمتها من الرؤوس التى رأيتها تسقط ومن الرقاب التى كانت تطير من حولى ، ليس كل ما يُعرف يقال ، ولسانك كالحصان من الممكن أن يسير

بـك الهوينـى فـوق الصخـور والأشـواك أو يرمـح بـك إذا فقـدت زمامـه ، فتسـقط وتتكـسر عظامـك وسـاعتها لـن يسـمى عليـك أحـد.

***

أحـد أهـم أسـباب صمـودى ورسـوخ أقدامـى فى عـالم الأدب هـو عـدم احتياجـى ماديًـا بحكـم انتمائـى لعائلـة ثريـة ، لم أسـع إلى دور النـشر والصحـف بحثًـا عـن الـرزق أو عـن وظيفـة كـما كان يفعـل الكثـيرون مـن الزمـلاء.

عملـت فى وظيفـة حكوميـة عقـب تخرجـى كأى شـاب مـن جيـلى فقـط للحفـاظ عـلى وضعـى الاجتماعـى بـين النـاس ، كنـت ومـا زلـت عاشـقًا لـلأدب وللكتابـة حبًـا فى الفـن وليـس لأى غـرض آخـر ، حتـى الشـهرة كنـت أتمناهـا بالطبـع كأى أديـب لكننـى لم أسـع إليهـا ولا أدعـى حتـى وأنـا فى هـذه السـن المتقدمـة أننـى حققـت منهـا الكثـير.

صحيـح أننـى أظهـر أحيانًـا فى التليفزيـون فى البرامـج الثقافيـة التـى لا يشـاهدها إلا عـدد محـدود للغايـة مـن المشـاهدين ، وأتكلـم كثـيرًا فى البرامـج الإذاعيـة لكـن يبـدو أن أحـدًا لا يسـمعنى ، اللهـم إلا أفـراد أسرتـى وأصدقائـى مـن الأدبـاء الذيـن يتابعـون مثـل هـذه البرامـج لا لشـىء إلا لأنهـم هـم أنفسـهم يتكلمـون فيهـا ، لكنـى معـروف وبشـكل يرضينـى داخـل الوسـط الثقـافى عمومًـا ، أمـا عـلى مسـتوى الجمهـور فـأكاد أكـون مجهـولًا لديهـم.

لا أعتقـد أنـى كنـت سـأواصل الكتابـة لـو كان هـم المـال يشـغلنى أو ولـدت فقـيرًا مثـلًا لا قـدر الله ، سـاعتها كان لابـد أن أبحـث عـن عمـل أو وظيفـة محترمـة أولًا ، توفـر لى حيـاة كريمـة أسـتقر فيهـا ماديًـا ، فـلا طاقـة لى عـلى حيـاة الفقـر أو التـشرد والصعلكـة وقضـاء أيـام بأكملهـا فى الشـوارع وعـلى الأرصفـة ، كـما فعـل العديـد مـن الأدبـاء والشـعراء الذيـن حاربـوا الفقـر بـضراوة وحاربهـم الفقـر أيضًـا وبمنتهـى القسـوة وعانـوا

مـن أجـل موهبتهـم وضحـوا فى سـبيلها بـكل شـىء.

لعـل هـذا النـوع مـن الحيـاة قـد سـاعد الكثيريـن منهـم بعـد ذلـك عـلى تحمـل فـترة السـجن والتعايـش معهـا، ففـى رأيـى وهـذا لم أصرح بـه لمخلـوق مـن قبـل أن السـجون كانـت أرحـم لهـم مـن هـذه الحيـاة الصعبـة ، عـلى الأقـل يضمـن الواحـد منهـم وجبـة طعـام مهـما بلغـت رداءتهـا فهـى أفضـل مـن لا شـىء ، ويعـرف مسـبقًا المـكان الـذى سـيقضى فيـه ليلتـه وينـام !

لكـن فى نفـس الوقـت كنـت أشـفق بشـدة عـلى بعـض الأصدقـاء الذيـن أهينـوا فى المعتقـلات ممـن تعاملـوا مـع الإبـداع برقـى واحـترام ولم ينجرفـوا إلى الشـطط والمجـون فى حياتهـم الشـخصية بدعـوى التحـرر والانطـلاق فى سـماوات الفـن ، أمـا هـؤلاء الذيـن تركـوا كل شـىء مـن أجـل الأدب والكتابـة ولم يعملـوا أو لم تكـن لديهـم القـدرة عـلى عمـل شـىء آخـر أصًلا ، فلـم أوافقهـم أبـدًا مـع اعـترافى أن بعضهـم كان يمتلـك موهبـة فذة سـواء فى الشـعر أو فى الكتابـة الإبداعيـة ، فتفـرغ تمامًـا ليجعـل حياتـه تـدور فى فلـك موهبتـه.

بالنسـبة لى كان هـذا هـو المسـتحيل بعينـه ، أسـتطيع أن أعطـى وقـت فراغـى بأكملـه مضحيًـا براحتـى وسـاعات نومـى وبالصـلات العائليـة أحيانًـا لأوفـر لنفسـى وقتًـا للقـراءة والكتابـة ، أغلـق بـاب حجرتـى بالسـاعات ولا أسـمح لمخلـوق أن يعطلنـى ، فـإن أقـل تشـويش يفقدنـى تركيـزى ويخرجنـى مـن الاندمـاج فى الحـدث الـذى أكتبـه ، فالحـق أننـى أميـل للعزلـة بطبعـى ومنـذ الطفولـة ، وهـو الأمـر الـذى انعكـس عـلى حياتـى الأسريـة التـى لم تعـرف الاسـتقرار.

***

تزوجـت ثـلاث مـرات فقـط ، جمـوح الفنـان الـذى يسـكن داخـلى تركـز فى عشـقى البالـغ للمـرأة وللحـب ، فى هـذا الجانـب أنـا صعلـوك تمامًـا

ومتشرد فى شوارع الحب وعلى أرصفة النساء،لا أطيق معاشرة امرأة واحدة لمدة طويلة ، فأنا ملول من هذه الناحية ، بحثى عن الجديد فى الحب لا يتوقف ، أحب صحبة الجميلات لكنى فى نفس الوقت أسأم من هذه القيود اللصيقة التى تفرض علىَّ بعد الزواج ، ربما كان هذا هو الجزء المتمرد فى نفسى كفنان لا أستطيع السيطرة عليه مهما حاولت.

أما عشقى الآخر فهو السفر والترحال فى بلاد العالم ، وهذا ما أضفى الطابع المتميز على كتاباتى ، فالعديد من أعمالى الأدبية تدور أحداثها فى دول مختلفة خاصة دول أوربا التى تجولت فيها وعشت أيامًا من عمرى أتلمس الثقافة بين مكتباتها ومتاحفها بشغف لا يعرف حدًّا ، كما كنت مهتمًا بالتقدم العلمى والبحث فى أسبابه ، فى الوقت الذى حرصت فيه على الاقتراب من الناس والتعرف على طبيعتهم وسلوكهم وأساليبهم فى الحياة ، وهو ما فعلته أيضًا عند سفرى إلى شرق آسيا برغم أنها كانت زيارة وحيدة ، مما جعلنى أكتب عدة كتب فى أدب الرحلات بالإضافة إلى ما أوحت لى به هذه الأسفار من أفكار قصصية.

برغم حرصى البالغ وما تولد لدىَّ من حس أمنى ، بحكم ما شاهدته من رؤوس ورقاب ساقطة وطائرة ولأسباب كانت فى بعض الأحيان بالغة التفاهة ، إلا أننى وقعت فى المحظور دون أن أقصد.

كتبت فى أحد كتبى عن الحرية التى يتمتع بها الناس فى إحدى دول أوربا الغربية ووصفت مشاهداتى فى ذلك ، كنت أقصد نقل صورة الواقع لا أكثر.

وفى فصل آخر كتبت عن دول أوربا الشرقية وما يعانيه الناس من فقر وقمع ، مقارنة بما يحدث فى الدول المجاورة خاصة على مستوى المعيشة ، وكان الفارق كبيرًا بالفعل بحيث لفت انتباهى ، ولم يكن

من الممكن أن أتجاهل أمرًا كهذا وهو أحد أهم شواغلى فى الحياة،فلا أعتقد أن الله قد خلق الناس ليتعذبوا ويعانوا البؤس فى حياتهم ، لكن البشر يظلمون أنفسهم بطغيان بعضهم على بعض.

ويبدو أننى أسهبت أكثر من اللازم فى الحديث عن الحرية فى الدول الديمقراطية وانعكاسها على حياة الناس من ناحية ، وأثر غياب الديمقراطية على حياة الناس فى الناحية الأخرى،مما عده البعض تعريضًا بنظام الحكم ، وحدثت حولى حركة مريبة من التحرى والهمس والهمهمة وسألنى أحد الكتاب من منافقى السلطة صراحة مستخدمًا أسلوبهم السوقى فى الكلام ..

– أنت بتلسن على الحكومة فى كتابك الأخير ، ولا قصدك إيه ؟!

تكلمت مدافعًا عن نفسى قدر طاقتى مخفيًا رعبى من العاقبة ، لكنها فى النهاية مرت على خير ، بعد أن تلقيت عدة رسائل شفوية بطرق ملتوية غير مباشرة فى أغلب الأحيان ، وبشكل تحذيرى مباشر مرة واحدة لكن المضمون كان واحدًا ، احترم نفسك وبلاش تلعب بالنار.

كان أحد أصدقائى الشعراء من ذوى الكلمة المسموعة قد تطوع للدفاع عنى فى كل مكان عند ارتفاع موجة الشكوك والارتياب من حولى ، ولم يجد وسيلة لذلك إلا بالتشنيع والسخرية، فكلما اقترب الحديث من سيرتى فى التجمعات والمنتديات التى ترصدها السلطة ، وتبث فيها المخبرين وكتبة التقارير الأمنية ، قال ضاحكًا مستهزئًا.

– يا جماعة ده راجل هايف ولاعلاقة له بالسياسة ولا يفهم فيها ولا يعرف فى الدنيا إلا الجرى ورا النسوان والكتابة عنهن ، ده بيسافر أوربا مخصوص علشان النسوان ، هو الموضوع بتاع الديمقراطية حصل معاه بالصدفة من غير ما يقصد.

لم يكن هذا الصديق بالرجل السهل أو الساذج ، كان يتعمد إخفاء

دهائه تحت قناع من السخرية والمرح وإطلاق النكات وساعده على ذلك تمتعه بخفة دم طبيعية لا افتعال فيها،أخبرنى فيما بيننا عندما بدأت دوائر الشك تحيط بى ، أنه سيلجأ إلى تمييع القضية ، قائلًا بجدية.

– دعنى أتلاعب بأدمغتهم بطريقتى حتى أخرجك من هذه الورطة.

هززت رأسى موافقًا وأنا أشكره ، لكن حملته برغم نجاحها كانت من القوة وشدة الأثر بحيث التصقت بى هذه التشنيعة لسنوات طويلة.

***

عندما تلقيت هذا العرض بكتابة سلسلة مقالات فى إحدى الجرائد الكبرى ، كدت أرفض فى البداية ، فقد كنت قد بدأت فى كتابة رواية جديدة بعد سنوات من التوقف ، أصابتنى حالة من الجدب بعد خروجى على المعاش حتى اعتقدت أننى فقدت موهبتى الإبداعية وانتهيت كأديب، لكن لمعت فكرة الرواية فى عقلى فجأة وبلا مقدمات ، فشرعت فى الكتابة من جديد وأنا فى غاية الحماس.

رئيس التحرير الذى أعرفه منذ أن كان صحفيًا ناشئًا ، أفرد لى مساحة محترمة تتصدرها صورة لى وقال بعباراته السريعة الموجزة ، لك مطلق الحرية فى كتابة ما تشاء .. ليس هناك قيود ، تجاربك ورحلاتك الكثيرة وذكرياتك عنها ، آراؤك فى الحياة الثقافية والعامة ، يسعدنى أن أنشر لك يا أستاذى كل ما تود كتابته.

برغم أن كتابة الرواية قد تتعطل مع انشغالى بالمقال الأسبوعى الطويل ، لكننى فى النهاية وافقت بعد أن خطرت على بالى تلك الفكرة ، لماذا لا أفعلها الآن ، بعد هذا العمر ، أن أقول ما حبسته فى صدرى لسنوات طويلة ، سأجرب وليكن ما يكون ، لم يعد لدى ما أخسره ، والأهم أننى لم أعد أخشى شيئًا وأنا فى هذه السن.

خرجت المقالة من صدرى كالإعصار ، تغيرت حكومات وتغير الرجال وبقى الحال على ما هو عليه ، كانت هذه الكلمات هى بداية المقال ، انطلقت بعدها لأقول رأيى فيما كان وفيما هو كائن حاليًا ، مستخدمًا خبرتى الطويلة فى الكتابة لكى أشير إلى المعنى وأوحى به دون أن أصرح مباشرة.

تعمدت أن تتخذ المقالة شكلًا أدبيًا حتى أتيح لنفسى فرصة استعمال الأساليب الفنية بكل ما فيها من حيل وتورية ومراوغة ، لكن فى النهاية خرج المقال واضحًا ومفهومًا على مستوى القارئ البسيط ، لم أكتب نصائح أو ملاحظات ولم أوجه نظر السادة المسئولين إلى كذا وكذا ، بل انتقدت وبشدة وقلت إن ما فعلته الحكومات السابقة ومصادرتها للحريات يُعد جريمة،وإن ما تفعله الحكومة الحالية فى البلد الآن يقودنا إلى كارثة ، هكذا دون مواربة ألقيت بها فى وجه الجميع.

وقعت على المقال وأرسلته إلى الجريدة ، وجلست مستعدًا لمواجهة أبواب الجحيم التى فتحتها على نفسى ، متخيلًا صدمة رئيس التحرير والحرج الذى سيقع فيه ، والبلبلة و اللغط الذى سيحدث بين العاملين فى الجريدة بسبب مقالى النارى الذى تخطى كل الحدود ، جلست هادئًا أنتظر ، متحفزًا مع كل رنين لجرس الهاتف أو الباب.

قرأت المقال الذى نُشر دون حذف كلمة ، شعرت بقطرات العرق تتجمع على جبهتى وأنا أنتهى من القراءة ، يبدو أننى قد أقمت الدنيا وزلزلت ثوابت عديدة ، لقد ألقيت بحجر كبير فى المياه الراكدة ، لابد وأنه سيثير زوبعة عارمة.

كنت فى غاية التوتر ، لم أطق صبرًا ، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بالجريدة ، أخبرونى أن رئيس التحرير غير موجود الآن ، طلبت منهم أن يبلغوه باتصالى عند عودته ، ثم اتصلت به فى البيت فلم يرد أحد

على الهاتف.

ارتديت ملابسى وذهبت إلى النادى ، تمشيت حول ملاعب الكرة وأنا مستغرق فى التفكير ، ثم جلست فى الكافتيريا أحتسى فنجانًا من القهوة وأنا أرى فى كل رجل يقترب منى شرطيًا ، لم تكن فى ذهنى صورة واضحة عن رد الفعل ، فى شبابى كنت أستطيع معرفة ردود الأفعال وبدقة ، أما الآن فهناك حالة من الضبابية تسود الأجواء.

لم يحدث شىء ، بمنتهى البساطة لم يحدث أى شىء ، حتى الناس الذين توقعت أن يثيرهم المقال فيلتفوا من حولى مؤيدين أو معارضين لم يعودوا موجودين " كل هذا الزحام ولا أحد " كما قال أحد الشعراء ، لا أعرف إن كنت أنا قد انعزلت عن الواقع فى عالمى الخاص أم أن الواقع بالفعل غامض وملتبس !

لم أعد أسمع عن اعتقالات ولم يعد الزملاء من الأدباء والمثقفين نزلاء على سجون الدولة ، لكننى بشكل أو بآخر متأكد أن هذه الوسائل البوليسية لم تنته ، ربما هناك طرق أكثر تطورًا وأشد دهاءً تستخدم حاليًا ولم أسمع بها بعد ، أو أنها تتم فى الخفاء وبأساليب سرية بحيث تضرب فى الأماكن الحساسة وتتعامل من تحت السطح أو من تحت الحزام بخبث ودون ضجة أو استفزاز كما تفعل أنظمة الحكم الغشيمة.

بدأت فى كتابة المقال الثانى بعد عدة أيام ، وهو مقال عادى من تلك المقالات التى نُسود بها صفحات الجرائد وبشكل روتينى ، فقد مر الأول دون أى رد فعل سواء سلبًا أو إيجابًا ، كأننى لم أكتب شيئًا ، كأننى مجنون أطلق صيحة فى الهواء لم يلتفت إليها أحد ، رئيس التحرير علق بكلمة واحدة عندما تمكنت من الاتصال به.

– كويس يا أستاذنا ، نحن فى انتظار مقالك التالى.

لم أكره فى حياتى هذه الكلمة " كويس " كما كرهتها وأنا أسمعها

تقـال بهـذه البسـاطة مـن رئيـس التحريـر ، إن حصـاة صغـيرة كانـت تكفى فيـما مـضى لإحـداث فـوران عـلى صفحـة الميـاه التـى كانـت أرق وأضعـف كثـيرًا ممـا ينبغـى ، ويبـدو أنهـا أصبحـت الآن أثقـل وأغلـظ بكثـير جـدًا عـما ينبغـى.

obeikandl.com

obeikandl.com

الهجـــوم

obeikandl.com

يسكنون هذا البيت منذ عدة عقود ، لا يعرف أحد سبب اختيارهم لهذا البيت تحديدًا دون غيره ، لكن الجميع تأكدوا فى النهاية أنهم يسكنون هذه العمارة ، وأنهم لن يسمحوا لأى شخص بالعيش معهم ، جرت محاولات كثيرة لطردهم ، استعان الناس عليهم بكل ما يعرفون من حيل وطرق قديمة مجربة مع أمثالهم دون جدوى.

كانوا دائمًا ينتصرون فى النهاية ، قد يختفون لأيام أو أسابيع حتى يعتقد الناس أنهم نجحوا فى إجلائهم ، لكنهم كانوا يعودون ، فى كل مرة كانوا يرجعون ، حتى يئس الناس من المحاولة ورضوا مرغمين بسكناهم فى هذا المكان وتركوه لهم ، وفوض صاحب العمارة أمره إلى الله واستعوضه عما أنفقه من مال فى البناء والتشييد ضاع فى نهاية الأمر هباءً ، ولأسباب عديدة لم يفكر فى هدم العمارة أو الاقتراب منها !

يقال إن قطعة الأرض المطلة على الحقول الشاسعة الواقعة على أطراف هذه الضاحية ، التى تتناثر فيها القصور الصغيرة والفيلات ذات الحدائق والعمارات الفخمة القريبة الشبه بالفيلات والتى لا ترتفع أكثر من أربعة طوابق طبقًا للقانون ، كانت فى الأصل أرض مقابر، إلا أن هذا الكلام لا يقوم عليه دليل ، مجرد أقوال لا يعرف أحد إن كانت صحيحة أم أنها محض خيال وتخاريف.

لكن المؤكد أن ما حدث فى هذه العمارة أو بمعنى أكثر دقة ما حدث لها ، قد شاهده الجميع، الجيران الوجهاء وأغلبهم من أصحاب الألقاب والثروات ومن يحيطون بهم من طباخين وسفرجية وسائقين وخدم وبوابين ، وهؤلاء كانوا أكثر الجميع اهتمامًا بالأمر بحكم مهمتهم فى الحراسة ولولعهم بالثرثرة خاصة عندما يتعلق الأمر

بأحد هذه الأشياء المثيرة ، مثل الفضائح التى تحدث بين مخدوميهم ومخدوماتهم من السيدات الأنيقات المعطرات والمتكلفات، وإن كان هذا أمر نادر الحدوث سرعان ما يخفت أثره بعد يوم أو يومين .. كما حدث مع عبد اللطيف بك وهو من ملاك الأراضى.

تأخر الغداء عن موعده عشر دقائق كاملة ، فطار صوابه وغضب بشدة حتى إنه لم يتمالك نفسه عندما رأى زوجته تتجه إلى غرفة السفرة وخلفها السفرجية يحملون أوانى الطعام ، فصاح بأعلى صوته وعلى مرأى من الخدم.

– إنتِ يا هانم مش قادرة تحكمى الخدامين ، البيت بقى فوضى ، دى حاجة فى منتهى الوساخة !

وقعت هذه الكلمة الشنيعة كالصاعقة فوق رؤوس الجميع ، وأطبق صمت شامل للحظات ، انهارت بعده الهانم وكادت تقع على الأرض من هول الصدمة لولا أن الخادمات أسرعن إليها ، فتساندت عليهن وهى تصعد إلى غرفتها وتتعثر خطواتها الرقيقة على درجات السلم الرخامى وقد امتلأت عيناها بالدموع ، لمدة ثلاثة أيام ظل عبد اللطيف بك يعتذر لها وهى ملازمة غرفتها تشيح بوجهها عنه ، ولم تقبل النزول إلى صالة الطعام إلا بعد أن أغرق يديها بدموع الندم.

***

أما حادثة العمارة الجديدة فإنها استولت على عقولهم لشهور طويلة ، وبرغم أنهم كانوا يتحدثون عنها بما يشبه الهمس وهم يتلفتون حولهم ، لكنهم لم يكونوا يتوقفون عن الكلام ، حتى عندما يتفلسف واحد منهم ويأمر رفاقه بالكف عن هذه السيرة ، فيصمتون ربما لدقائق ثم لا تلبث شهوة الحكى أن تتغلب عليهم ويعودوا للكلام والإثارة تهزهم ، وقد يكون المتفلسف هو نفسه الذى يبدأ بطرح سؤال أو خاطر عنّ له يتعلق بطبيعة من يسكنون العمارة والأسباب

التى دعتهم لاختيار هذا المكان دون غيره ..

ومن هنا يتشعب الحديث ويطول لساعات حتى خرجت فكرة أرض المقابر ، طرحها بواب عجوز مدعى الحكمة فتلقفوها منه على أنها الحقيقة ، أو التفسير الوحيد المقبول وروجوا لها بمنتهى الحماس.

المزارعون فى حقولهم القريبة التى كانت متنزهًا لأهل الحى فى وقت العصارى والصباح الباكر ، لم ينشغلوا كثيرًا بهذا الأمر ، واستمروا يعملون فى زراعاتهم أثناء النهار دون وجل، لكنهم ومن قبل المغرب مباشرة ينسحبون تمامًا من المنطقة المجاورة للعمارة ، ولا يقترب واحد منهم ولا حتى بالمرور السريع عبر هذا المكان أثناء الليل.

***

لم يكن قد مر سوى أيام على سكن ثلاث شقق من شقق العمارة الثمانى ، فى الطابق الثانى استقر أو هكذا اعتقد الأستاذ سيد الشاب المثقف الحاصل على ليسانس الحقوق ويعمل فى الإدارة القانونية لبنك مصر.

كان منشغلًا تمامًا بعروسه الجميلة كما ينبغى لزوج فى بداية شهر العسل يستهل حياته الجديدة فى هذه الضاحية الهادئة ، فراج أفندى الموظف المحترم انتقل من حى باب الشعرية إلى شقة فى الطابق الثالث مع زوجته وبناته وأولاده السبعة.

أما الضابط الذى أجر شقة فى الطابق الرابع فقد جاء بمفرده منقولًا من الإسكندرية ولم يكن يمضى فى شقته إلا ساعات الليل ، يأتى فى ساعة متأخرة جدًا ، بعد التاسعة عادة ، ويغادر بعد شروق الشمس مباشرة.

أصوات الطقطقة وبكاء الأطفال الرضع وصرير الأبواب الصدئة ، برغم عدم وجود تلك النوعية من الأبواب فى العمارة أصلًا ، كان يمكن إهمالها والتغاضى عنها ، أو بالأحرى تفسيرها ونسبتها

إلى الجيران والعمارات المجاورة وإلى تخبط الرياح فى الحقول وأشجار الحدائق القريبة ، لو بقيت الأحوال عند هذا الحد لكان من الممكن التعايش معها ، فهذه الأشياء كانت تحدث كأمر طبيعى فى معظم البيوت المجاورة للخلاء ، أما هذه العمارة فتجاوزت حد المألوف.

اندلعت النيران لأول مرة فى حجرة أحمد بواب العمارة ، كان قد انتهى من عمله وقام عن دكته الخشبية المجاورة لبوابة العمارة مرهقًا ، من كثرة صعوده ونزوله السلم بصحبة الزبائن الراغبين فى تأجير الشقق الخمس الباقية ، وقد صدم أغلبهم من قيمة الإيجار الباهظة التى تبلغ ستة جنيهات وخمسة وثمانين قرشًا ! مما كان يدفعهم إلى النزول ومغادرة العمارة وهم يشعرون بالأسف وبالطبع دون أن يعطوه البقشيش ، مما جعله يشعر بالإرهاق الممتزج بالحسرة على تعبه الذى يروح هدرًا.

ما أن فتح باب الغرفة ومد رجله ليدخل حتى هبت النار فجأة فى أحد الأركان فارتد فزعًا إلى الخارج ، ثم أسرع تدفعه الرغبة فى إنقاذ متاعه القليل ليمسك بالبطانية ويلقيها على النار ، لكنه رآها تخمد فجأة من تلقاء نفسها بعد أن أحرقت بعض أشيائه وسودت جدران الغرفة.

تسلل الأستاذ سيد إلى المطبخ حيث تقف عروسه بقميص النوم تعد العشاء ، انقض عليها من الخلف محتويًا جسدها الممتلئ ، فشهقت من الخضة ونددت عنها صرخة خافتة وقد سابت مفاصلها من وقع المباغتة وكادت تهوى على الأرض ، لكن ذراعيه القويتين أطبقتا على جسدها المترجرج بإحكام ، وما كادت حرارة عواطفهما تتأجج حتى اشتعلت النار فى غرفة النوم.

بعد أسبوعين كانت واجهة العمارة قد تلطخت بهباب أسود فى مواضع عديدة ، شوه الطلاء الناصع البياض واخضرار ضلف الشيش

التى تركت مفتوحة تصفق مع الرياح ، بعد أن هجرها السكان وهم فى حالة يرثى لها.

فراج أفندى كان أسرعهم بالفرار حيث لم يطق الفضيحة التى تعرض لها أمام زوجته وبناته ، وكانوا قد خرجوا من شقتهم وتجمعوا على السلم فهبط عليهم فجأة الضابط الشاب باللباس والفانلة الداخلية ، نازلًا من أعلى وهو يقفز درجات السلم حافى القدمين ليجدوه بينهم وقد طار صوابه من الهلع ، مما جعل فراج أفندى ينسى فزعه من النار والعفاريت التى تشعلها ، ويستشيط غضبًا ورفض اعتذار الشاب الذى كان يشعر بحرج بالغ هو الآخر ليس فقط بسبب نزوله بهذا الشكل المزرى ، وإنما لما أظهره من خوف لا يليق بمركزه.

***

سمع نايف بحكاية العمارة من زبائن مقهاه الذى يقع على بعد شارعين فى منطقة كانت جزءًا من الحقول حتى عهد قريب ، ولما كان سليل أسرة من الأعراب عريقة فى تجارة المخدرات ويمتلك أعصابًا فولاذية وقلبًا قاسيًا ، لا يهاب الحكومة نفسها بعساكرها وضباطها ووكلاء نيابتها وقضاتها ، بالإضافة إلى جسد فارع متين البنيان وألوف مؤلفة من الجنيهات، فإنه سخر فى نفسه من هذا الكلام ولم يصدقه.

ولكنه ولفكرة دارت فى عقله تظاهر بالاهتمام بما يرويه عم أحمد الذى كان بوابًا للعمارة المهجورة منذ ما يقرب من عشرين سنة ! بل إنه تمادى فأظهر الرعب مما يسمع قائلًا.

- دى حكايات تشيب العيل الصغير !

لكنه قام بعد ذلك بزيارة العمارة بعد منتصف الليل ليستكشف إمكانية استخدامها كمخزن آمن لتجارته ، فوجد أن حجرة أحمد البواب التى تقع تحت السلم هى أنسب موضع لتخزين بضاعته غير القانونية.

طمع نايف فى المكان بعد شهور من استخدامه فى تخزين المخدرات ، فقرر فى لحظة تجلٍ أن يجعل من صالة إحدى شقق الدور الأرضى غرزته الخاصة لتدخين الحشيش مع أصدقائه ومعارفه.

لم يسأل واحد من الأصدقاء الحشاشين ، وهم يتخذون مجلسهم فى الصالة الفسيحة التى أعدها نايف وزودها بالشلت والحشايا للجلوس وعدد من جرادل الماء وكلوب للإضاءة الخافتة ، عن السر فى بقاء هذه العمارة مهجورة ، وكلهم من أحياء أخرى ، ربما بحكم اعتيادهم ارتياد الأماكن الشاذة والغرز السرية التى يتفنن أصحابها فى إخفاء هويتها.

كان نايف قد بدأ يخطط للاستيلاء على العمارة بأكملها وهو يفتتح قعدة المزاج منتشيًا بالدخان المعطر ، وقبل أن تتم بوصة الجوزة دورتها الأولى ، أخذت قصعة الفحم تطقطق وتطلق الشرر ، مما جعلهم يضحكون ويطلقون التعليقات على الفحم الصاحى بتاع المزاج العالى ..

وحده نايف لم يضحك .. وعلى عكسهم جميعًا تيقظت حواسه وهو ينظر بتوجس إلى القصعة التى يتزايد فيها الشرر كثافة ، وقد تحفز تمامًا وتوهجت ذاكرته بكل حكايات الجن والعفاريت التى سمعها فى طفولته ، تروى بين الفلاحين فى القرى التى كان هو وأهله يعيشون على تخومها.

عندما دارت القصعة على قاعدتها وشبت فيها نار صعدت إلى سقف الغرفة وأخذت تطلق شررها على حلقة الجالسين حولها ، قام نايف وقد أدرك تمامًا معنى المثل الذى طالما سمعه من قبل وسخر منه ، إن الجرى نصف الجدعنة ..

فأطلق ساقيه للريح وخرج من الغرفة ومن الشقة والعمارة كلها ولم يتوقف إلا بعد أن ابتعد تمامًا ، وقف يلهث وتذكر لحظتها فقط

أصدقاءه ، فرجع خطوات قليلة تسمح له برؤية مدخل العمارة ، فوجدهم يتدافعون إلى سياراتهم وينطلقون بها تباعًا محدثين ضجة أقلقت الهدوء الذى يسود الشارع والحى ، وهم يتصايحون بالسباب واللعنات ولم يكن فى حاجة لكثير من الذكاء ليفهم حتى دون أن يسمع بوضوح أن هذا السباب موجه له ولليوم الأسود الذى عرفوه فيه.

ولم تلبث هذه الواقعة أن اشتهرت وعرف بها القاصى والدانى من سكان الحى ، وافتضح سر نايف كتاجر مخدرات يستخدم العمارة كمخزن لبضاعته وكغرزة لتعاطى الحشيش ، مما دفعه لإغلاق مقهاه ومغادرة الحى بأسره ، وزادت هيبة العمارة فى النفوس كحصن منيع وراجت سمعتها القديمة من جديد ، حتى أصبح الناس يخشون مجرد المرور أمام بوابتها وينزلون من الرصيف قبلها بعدة أمتار.

***

عندما جاء زمن أحفاد الأجيال التى عاصرت بناء العمارة وشهدت أحداثها ، كان عصرًا بأكمله قد انقضى ، ظلت العمارة على حالها وإن غطاها غبار الزمن وأحال لونها الأبيض الناصع إلى لون كاب منطفئ يصعب تحديد هويته ، درجة لونية هى خليط من الأصفر والبنى والرمادى.

تهدم السور الأنيق الذى شُيد من الحديد المشغول بقصد التجميل لا أكثر ، وتشقق خشب النوافذ وتساقطت معظم أجزائه ، لكن هيكل المبنى ظل قائمًا محتفظًا بجمال تصميمه فى النهاية على الرغم من الأضرار الفادحة التى أصابت العمارة ، تقريبًا كان هو المبنى الوحيد الذى ظل قائمًا فى الحى ؟!

انهارت من حوله القصور والفلل والعمارات المماثلة وتحولت إلى عمارات شاهقة قبيحة ، واختفت الحدائق والأشجار وأصبحت من

ذكريات الماضى البعيد، فقط من الممكن أن تلمح شجرة صغيرة تقف على استحياء كل عدة شوارع ، غرسها البعض ممن ظل محتفظًا ببقايا الإحساس بالذوق والجمال.

أما الحقول فقد تمت مطاردتها وإبادتها بكثير من التأنى والحرص حقلًا وراء حقل حتى حدود الصحراء التى تركت برمالها الصفراء دون أن تُمس.

فى الوقت الذى أصبح الضجيج والزحام هو سمة الحى ، تقلقل سكان البيت ولم يعد باستطاعتهم إثارة الفزع أو الرهبة فى النفوس كما كان شأنهم فيما سبق ، بل إن العكس هو ما حدث عندما بدأ اقتحام العمارة من بعض المغامرين ممن لا مأوى لهم ، والذين ضاقت بهم السبل وهم يبحثون عن سكن.

بلطجية وعاطلون وعمال فى الورش الكثيرة المنتشرة فى الحى ، سائقو ميكروباص من عربجية الزمن الجديد ، شبان من صغار الموظفين نشأوا فى نفس الحى ، جميعهم طحنتهم الحياة وهام بهم الأسى والبؤس كعاشق لحوح لا يفارق عشيقته ، احتضنهم الفقر كما تحتضن الأم القاسية وليدها ، إن مشكلة بسيطة مثل مشكلة عفاريت العمارة ، هى أهون ما يمكن لهم أن يواجهوه.

اكتظت بهم الشقق والحجرات إلى حد الاختناق ، لم تملك عائلة منهم مهما بلغ عدد أفرادها ترف الانفراد بشقة واحدة.

لم يلبث أن دفعهم التزاحم إلى العراك ودار بينهم صراع ، أصوات الزعيق والصراخ والشتائم تتواصل ليلًا ونهارًا ، تتخللها وصلات من المعارك الدامية باللكمات والشلاليت ، والحق أنهم برغم كل شىء حافظوا على صلة الجوار بأقصى ما يستطيعون ، فلم تفتح المطاوى إلا مرات معدودة وبغرض الردع ليس إلا.

ففى أغلب الأحيان يخرج الرجل مطواته مهددًا بضرب نفسه بعد

أن يكـون قـد زهـق مـن الصفـع واللكـم والتشـليت ، فيخاطـب جـاره صائحُـا.

– والله أعور نفسى وأوديك فى داهية يا ...

عندئـذ يرتـدع الجـار الطيـب الـذى يكـون هـو نفسـه قـد أصابـه الزهـق ، فـيرد زاعقًـا.

– طيب لكن وحياة أمك ، المرة الجاية هاطلع ثلاثة ...

المـرة الوحيـدة التـى اتحـدوا فيهـا ووقفـوا معًـا وقفـة امـرأة واحـدة ، عندمـا علـم أحفـاد مالـك العـمارة بخـبر سُـكنى العـمارة والاسـتيلاء عليهـا ، حـضروا ليستطلعوا إرث جدهـم الـذى نسـوه زمنًـا طويـلًا ، تربوا عـلى الخـوف والحـذر مـن هـذه العـمارة وسـمعوا عنهـا مـن الحكايـات فى طفولتهـم مـا شـيب رؤوسـهم ، أمـا الآن وقـد وصـل سـعر الأرض إلى ملايـين عديـدة ، فـإن الأمـر يحتـاج إلى إعـادة نظـر !

فى البدايـة تهيـب سـكان العـمارة الجـدد مـن هيئـة الأحفـاد وأثـر النعمـة البـادى عـلى وجوههـم وملابسـهم ، اعتقـدوا أنهـم مـن موظفـى الحكومـة ، شرطـة ، نيابـة أو قضـاء أو هندسـة المحافظـة، أخرجـوا فواتـير الكهربـاء التـى تحصلـوا عليهـا عـبر سلسـلة طويلـة مـن التزويـر والرشـاوى والحيـل القانونيـة الملتفـة كمسـالك الثعابـين ، خاطبوهـم بألقـاب الباشـوية والبكويـة وأحـضروا الشـاى والقهـوة والحاجـة السـاقعة ، حتـى تبينـوا فى النهايـة هويتهـم.

عندهـا أسـمعوهم قصائـد الشـخر واللـوع المصحوبـة بإشـارات الإصبـع الوسـطى وترقيـص الحواجـب والأرداف وكافـة أنـواع التشـليق والـردح وتصحـين الكفـوف وتشـليح الثيـاب ، واختتمـوا الحـوار بفتـح المطـاوى معلنـين أنهـم لـن يخرجـوا مـن المـكان إلا قتـلى ، وأعـلى مـا فى خيلكـم وخيـل أهاليكـم اركبـوه !

قـال ضابـط القسـم بضيـق وهـو يأمـر بفتـح المحـضر ، إنـه ضـج مـن

هـذه العـمارة ومشـاكل سـكانها ومحاضرهـم الكيديـة التـى لا تنتهـى ضـد بعضهـم.

وبعـد أن انتهـى مـن تحريـر المحـضر نصـح الأحفـاد متلطفُـا معهـم بنسـيان الموضـوع وأن عوضهـم عـلى الله فى العـمارة وأرضهـا ، ثـم أضـاف كأنـه يعزيهـم ، أنـه هـو نفسـه لـو كان مكانهـم لآثـر السـلامة وابتعـد عـن هـؤلاء النـاس.

فى سـاعات الليـل الأخـيرة قبـل أذان الفجـر بقليـل وهـو الوقـت الـذى تهـدأ فيـه أصـوات الضجيـج ، تهـدأ فقـط لكنهـا لا تتوقـف أبـدًا ، المنبعثـة مـن المقاهـى والمحـلات والمطاعـم وعربـات الباعـة الجائلـين وكلاكسـات السـيارات وعربـات النقـل والنصـف نقـل.

كانـت تُسـمع بـين الحـين والحـين وسـط الشـخير والـضراط والتأوهـات وروائـح الأجسـاد المكدسـة ، أصـوات خافتـة تـكاد تهمـس كأنهـا مخنوقـة لصلصلـة سلاسـل أو صريـر أبـواب ، وتلمـع فى الأركان ومضـات باهتـة سرعـان مـا تهمـد ويبتلعهـا الظـلام.

obeikandl.com

البحث عن شاعر

obeikandl.com

مفاجأة غير متوقعة .. أصابتها بالحيرة ، يصعب عليها أن تصدق أنه غير معروف إلى هذا الحد ، حتى فى أوساط المتخصصين ودارسى الأدب ، هناك من سمع عن اسمه .. اسمه فقط دون أن يكون قد قابله أو يعرف عنوانه أو رقم هاتفه !

كانت تتوقع أن يكون علمًا من أعلام الشعر فى وطنه ، حتى إنها خشيت أن تصعب عليها مقابلته بسبب شهرته وازدحام الناس حوله ، توقعت أن يكون له سكرتير مثلًا يحدد معها ميعادًا .. أو أى شىء بخلاف هذا التجاهل والصمت.

فى رحلة من الرحلات التى تقطعها الكتب عبر البلاد ، تصل معها إلى أماكن مختلفة وبعيدة من أرجاء العالم ، وصل إليها ديوان شعر فى موطنها بأقاصى البلاد الروسية ، أخذها الإعجاب وهى تتصفح القصائد فى القراءة الأولى ، ثم عكفت على دراسته باستمتاع وهى تتذوق الأبيات وتحلق فى عالمها الثرى حتى حفظت أكثر من قصيدة.

حاولت أن تحصل على ديوان آخر أو كتب أخرى لشاعر الديوان لكنها لم تجد ، سألت أساتذتها فى قسم اللغة العربية ، واتصلت بمكتبات الجامعات الأخرى دون أن تسفر محاولاتها عن بارقة أمل تتيح لها معرفة المزيد عن هذا الشاعر وإنتاجه الأدبى ، المعلومة الوحيدة التى حصلت عليها ، أنه فى الخمسينيات من عمره ويعيش فى القاهرة.

بالرغم من قراءتها النهمة فى فروع عديدة من الأدب العربى بحكم تخصصها ، لكن هذه القصائد ظلت تصاحبها ، ترجع إليها بين الحين والحين ، عندما شرعت فى إعداد رسالتها للماجستير فى الشعر العربى المعاصر وضعت هذا الديوان على رأس القائمة ، ولما كان عمل واحد

لا يكفى لتقييم الشاعر ودراسته ، فإنها اعتقدت أن بعثتها الدراسية إلى القاهرة سوف تتيح لها الحصول على جميع إنتاج الشاعر بل ومقابلته شخصيًا حتى تكمل بحثها ، لتفاجأ أنه غير معروف حتى بين المتخصصين من أساتذة الأدب !

القاهرة مدينة صاخبة .. مزدحمة إلى حد الجنون والفوضى ، لكن أهلها يتعاملون معها بترحاب وود ، تلمح تلك الابتسامة المشجعة وهى تتحدث معهم بلغتها العربية الفصحى ، وبالكاد تتبين معانى الكلمات العامية وهى تتبادل الحديث مع أحدهم.

لم تكن هناك صعوبة فى الجامعة حيث يتحول الحديث إلى الفصحى التى تعرفها بسهولة ، أما فى تعاملاتها مع عامة أهل المدينة فكان الأمر أصعب كثيرًا.

البعض من المتعلمين كان يعدل عن العربية بنوعيها إلى الحديث بالإنجليزية التى لا تتقنها ، فتسارع بإعلان هويتها الروسية وأنها قدمت إلى مصر لدراسة اللغة العربية ولذلك تفضل الحديث بها.

لكنها وبعد فترة قصيرة تعودت اللهجة العامية وزالت صعوبة التعامل بها ، فأصبحت تتحدث بلغة هى خليط من الفصحى والعامية والأهم أنها استطاعت أن تفهم لغة الناس وكلامهم بعد أن كانت ألغازًا لا تمت بصلة إلى ما تعلمته !

مازال الديوان وشاعره المجهول لغزًا أصعب لا تستطيع فك طلاسمه ، كانت تسأل الجميع دون أن تحظى بجواب شاف.

الأيام تمر سريعًا ومدة البحث تقارب على الانتهاء ، أخذت تفكر فى استبعاد هذا الشاعر وديوانه من البحث ، وهو الأمر الذى أسفت له ومثل لها حزنًا من نوع خاص على هذا التجاهل الذى يلقاه شاعر أحبته وعشقت قصائده.

الآن تدرك سبب هذا الشجن العميق فى شعره ، إنه ينشد أشعاره

دون جمهور .. لنفسه وربما لأصدقائه ، ولا تجد موهبته صدى لدى مواطنيه ، إن أقسى أنواع العقاب التى ينزلها المجتمع بالمبدع ، أن يواجه إبداعه بالصمت ، كأنه لا شىء .. كأنه لم يُوجد ولم يُعش أصلًا فى هذا المجتمع.

خلال الأشهر التى قضتها فى القاهرة تأكدت أن شاعرها ليس الوحيد الذى يعانى ، هناك آخرون .. وأن مصفاة الإبداع لا تمرر الأفضل دائمًا.

فى زيارة لها لإحدى المكتبات المنتشرة فى وسط القاهرة خطر ببالها أن تسأل البائع عن الشاعر وإذا كان قد سمع عن ديوانه ، وكان لديهم بالمكتبة العشرات من كتب الشعر لكثير من الشعراء ، فاعتذر وأخبرها آسفًا أنه لم يسمع عن هذا الشاعر ولا عن ديوانه من قبل ، لكنه سألها بحكم مهنته عن ناشر الديوان.

لم تكن تعرف وبدا للحظة أنها فوجئت بالسؤال وإن خمنت مغزاه على الفور ، كيف لم يخطر ببالها من قبل ؟ أخرجت نسخة الديوان من حقيبتها ، وكانت تحتفظ بها دائمًا لتسأل من تعتقد أنه من الممكن أن يعرف.

بمجرد أن رأى البائع النسخة فى يدها ، قال على الفور إنه من إصدار الهيئة العامة للكتاب ولابد أنهم هناك سيخبرونك بكل ما تريدين عن هذا الشاعر.

أخيرًا بعد كل هذا العناء الذى تكبدته ، إلى هذا الحد كان الطريق سهلًا وبين يديها دون أن تدرك ، ستستطيع أن تصل إليه ، بعد رحلة البحث الطويلة ، لابد أنهم يعرفون عنه الكثير ، عنوانه ورقم هاتفه وقبل كل هذا دواوينه الأخرى والتى طالما تمنت أن تقرأها.

برغم الترحيب الذى قابلوها به فى مبنى الهيئة الهائل ، كان الأمر بعكس ما تصورت ، عندما أخرجت النسخة لموظفى الاستعلامات

، بـدا عليهـم الوجـوم للحظـات قبـل أن يخبرهـا أحدهـم ، أن بإمكانهـا أن تسـأل عنـد الأسـتاذ فـلان وأعطاهـا وصفًـا حـاول أن يكـون واضحًـا للمـكان الـذى يقبـع فيـه مكتبـه ، سـارت عـبر ممـرات طويلـة ونزلـت سـلالم وصعـدت أخـرى وهـى تسـأل عـن المكتـب حتـى وصلـت أخـيرًا.

اسـتقبلها الأسـتاذ وبـدا مهتـمًا برغـم الـزوار الكثيريـن فى مكتبه وانشـغاله البـادى ، اسـتمع بهـدوء وهـو ينظـر إلى الكتـاب فى يدهـا ، ثـم أخبرهـا أن هـذا الكتـاب قـد أصدرتـه الهيئـة منـذ سـنوات ، وأنـه شـخصيًا سـمع عـن هـذا الشـاعر لكنـه لا يعرفـه ولا يعـرف إن كان قـد أصـدر دواويـن أخـرى أم لا .. كـما أنـه بالطبـع لا يعـرف عنوانـه أو رقـم هاتفـه.

لكنـه ابتسـم فى النهايـة وهـو يخبرهـا أن سـكرتير تحريـر السلسـلة الأدبيـة التـى طبعـت الكتـاب ربـما يعـرف ، ثـم نـادى فـراش مكتبـه وأمـره أن يوصلهـا إلى مكتـب سـكرتير التحريـر الـذى يقـع فى الناحيـة الأخـرى مـن المبنـى.

نعـم بالطبـع أعـرف الأسـتاذ ، هكـذا بادرهـا سـكرتير التحريـر الـذى عرفـت أنـه هـو نفسـه شـاعر بمجـرد أن أخبرتـه ، وكانـت قـد بـدأت تمـل مـن تكـرار نفـس الـكلام ، لكنهـا تنفسـت الصعـداء وهـى تجلـس عـلى الكرسـى الـذى قدمـه لهـا ، فقـد وجـدت مـن يعـرف شـاعرها .. أخـيرًا.

لكـن الشـاب برغـم حفاوتـه وزجاجـة الميـاه الغازيـة التـى أسرع بإحضارهـا إليهـا سرعـان مـا خيـب أملهـا ، فلـم يكـن قـد قابـل الأسـتاذ سـوى مرتـين أو ثـلاث فى نـدوات أدبيـة ، وبالطبـع لا يعـرف عنوانـه أو هاتفـه ، لكنـه أكـد لهـا أن لـه سـتة دواويـن شـعر بـما فيهـا الديـوان الـذى معهـا ، تألـق وجههـا بالسـعادة .. هنـاك خمسـة دواويـن أخـرى إن هـذا رائـع.

ظنـت بعقليتهـا الأوربيـة أن الدواويـن الخمسـة متاحـة وأنهـا سـتحصل عليهـا الآن .. لكـن علامـات الأسـف التـى ظهـرت عـلى وجـه سـكرتير

التحرير سرعان ما خيبت أملها من جديد ، قال بحرج لا توجد لدينا أية نسخ من هذه الدواوين .

– تستطيع على الأقل أن تدلنى على المكان الذى يبيعها.

– ... الحقيقة لا أعرف ! فالهيئة طبعت ديوانين فقط على ما أعتقد ، والباقى طبعهم الأستاذ عند دور نشر أخرى لا علاقة لنا بهم.

كادت الدموع تطفر من عينيها من شدة الإحباط ، وأوشكت أن تلعن الحظ الذى قادها إلى دراسة هذه اللغة التى لا يعبأ أهلها بالأدب والأدباء ولا يحترمون الثقافة ولا يلقون لها بالًا ، لولا أن الشاب قفز فجأة من أمامها مندفعًا نحو الباب صائحًا أستاذ عبدالله ..

التفتت لتجد رجلًا قصير القامة أشيب الشعر لم يلبث أن دخل الغرفة بصحبة سكرتير التحرير بعد أن تبادلا حديثًا سريعًا فى الممر.

– الشاعر الكبير الأستاذ عبدالله ، صديق الأستاذ.

لم تكن تعرفه أو حتى سمعت عنه من قبل ، لكن الرجل صافحها بحرارة وبدا سعيدًا وابتسامته تتسع مع كل إجابة يرد بها على أسئلتها المتلاحقة ، حوار سريع لم يستغرق سوى عشر دقائق لكنه كان كافيًا لتحصل على كل المعلومات التى ظلت شهورًا تبحث عنها.

جاءها صوته عبر الهاتف قويًا وأحست بمدى الدهشة والاستغراب فى كلماته القليلة وهى تشرح له قصتها ومدى سعادتها بالعثور عليه ، لكنه فى النهاية شكرها واعتذر بأنه لن يستطيع أن يدعوها إلى بيته وإن كان من الممكن أن يقابلها فى إحدى كافتيريات وسط البلد.

***

فوجئت بشاعرها رجلًا طويل القامة ذا شارب كثيف وشعر قصير محلوق ، هيئته أقرب إلى هيئة العسكريين منها إلى الشعراء ، على عكس

ما كانت تتوقع فقد رسمت فى خيالها صورة مغايرة تمامًا له.

كان اللقاء فى الموعد الأسبوعى لتجمع عدد من الأدباء والمثقفين فى هذه الكافتيريا ، رحبوا بها وجلست بينهم سعيدة والشاعر يجلس بجانبها يعرفها عليهم ، كانوا خليطًا من الرجال بينهم عدة نساء ، ينتمون إلى أجيال مختلفة ، منهم الشيوخ كبار السن وهناك متوسطو العمر وهم الأغلبية ، بالإضافة إلى عدة شبان وشابات فى العشرينيات من العمر ، يجلسون معًا فى جو من التآلف والمحبة ، يتناقشون ويقرأون أشعارهم وقصصهم ويتبادلون كتبهم التى لا يشتريها أحد فيما بينهم !

بعد أن جلست ساعة معهم ، قام الشاعر وهو يحمل حقيبته ودعاها إلى إحدى الموائد البعيدة ليتحدثا معًا على انفراد.

لم تلبث أن شعرت عندما بدأ يتحدث ويجيب عن أسئلتها بمدى حساسيته ورقة مشاعره ، أخذ يضحك كطفل وهى تحكى له معاناتها فى العثور عليه ، ثم ظهر على وجهه حزن كسا ملامحه وهو يقول بأسى ، لى ثمانية دواوين من الشعر مطبوعة فى كتب غير القصائد المنشورة فى الصحف والمجلات ولم تجمع فى كتب بعد ! ويقترب عمرى من الستين ومع ذلك مازلت مغمورًا.

كان يتألم وهو يتحدث عن التجاهل الذى يلقاه .. لكنه لم يلبث أن استعاد صفاء نفسه وأخذ يحدثها عن شعره وهو يهديها نسخًا من كتبه، أطلت الفرحة من عينيه ، عندما طلبت منه أن يوقع لها على كل كتاب منها ، أمسك القلم وانحنى على الصفحة التالية للغلاف وأخذ يكتب لها الإهداء تلو الآخر ، بارتباك من لم يعتد هذا الأمر كثيرًا.

obeikandl.com

اللحــن

obeikandl.com

نعم .. أنا صاحب هذا اللحن ، هذه الأغنية الشهيرة .. جدًا ، إنهم يتذكرون اللحن وموسيقاه ، يتذكرون الأغنية التى يصعب نسبتها الآن إلى أى مطرب أو مطربة أو جوقة غنائية ، غناها كثيرون وكثيرات ، كما غنتها المجموعة بالتبادل بين أصوات الرجال والنساء ، قدمت بجميع الأشكال الغنائية الممكنة ، اللحن يسمح بكل ذلك ، يستوعب الجميع ، الصوت الرجالى المنفرد يركض فيه بكل طاقته ورجولته ، والصوت النسائى المنفرد يحلق فى فضائه الرحب بكل عذوبته ، وصوت المجموعة " كورال من الرجال والنساء معًا " يهدر فى المساحة الصوتية الشاسعة التى تستوعب مجموع أصواتهم بمنتهى الطلاقة.

إنه لحن فريد فى عالم الغناء ، مازالت الجماهير تحبه حتى اليوم ، برغم مرور سنوات كثيرة لم أعد أذكر عددها على تأليفى له ، يذاع فى الراديو بأصوات المطربين والمطربات الذين غنوه وهم كثيرون ، ويقدم كذلك فى الحفلات الغنائية التى تقام على مسارح الدولة ، باختصار هذا اللحن اكتسح الجميع ، وأولهم أنا نفسى ، صاحبه ومبدعه !

طغت شهرته علىَّ وعلى اسمى ، البعض لا يصدق وينظر إلىَّ شزرًا كأننى مجنون ، عندما أخبرهم أننى مؤلفه ، هم يعتقدون أنه لا بد أن يكون لحنًا لواحد من الكبار ، القصبجى أو سيد درويش ، عبد الوهاب أو السنباطى ، أو حتى أحد القدماء السابقين عليهم من ملحنى القرن التاسع عشر كعبده الحامولى أو محمد عثمان ، لكنهم لا يصدقون أبدًا أن ملحنًا مغمورًا لا يكاد يعرفه أحد يمكن أن يبدع مثل هذا اللحن الخالد.

أنا نفسى فى بعض الأحيان لا أصدق أننى ألفت هذا اللحن ، فى لحظة ، نعم فى لحظة كالسحر هجم على عقلى ، فجأة وبدون مقدمات ، دون أن أسعى أنا أو أجتهد ، وجدته يقتحم رأسى ويدور فيها ..

لا أعرف بالضبط كيف أصف هذا أو أشرحه لكم ، لا أعتقد أن بمقدورى أن أفسر ، فقد كنت منبهرًا ومأخوذًا تمامًا فى تلك اللحظة وأنا أسمعه ، نعم لا بد أن أعترف بهذا ، كنت أسمعه كأنه يملأ الفضاء حولى.

فى تلك الليلة الصافية والقمر يضىء السماء والنخيل وصفحة النيل الذى كنت أتمشى على رصيف الكورنيش المحاذى له ، ودماغى فى حالة سلطنة بديعة بكل معنى الكلمة ، كنا نجلس أيامها فى غرزة أنا وأصحابى على شاطئ النيل ، لم تكن غرزة بالمعنى المعروف ، أحد أصحابنا كان يمتلك مشتلًا وكانت شلتنا تتجمع كل يوم عنده ، نسهر على راحتنا ، طبعًا الحشيش كان هو العامل المشترك بيننا جميعًا ، كلنا حشاشون لا مؤاخذة ، مجموعة من الفنانين والأدباء والصحفيين ، ناس أصحاب مزاج، بمناسبة المزاج ..

أنا خرجت يومها وأنا فى حالة مزاجية غير عادية بالمرة ، منتهى .. منتهى الـ.. مش عارف أوصفها بصراحة ، دماغ شديدة ، رغم أنى شربت عشرين أو ثلاثين حجرًا فقط ! تقريبًا الصنف كان عالى جدًا ، من النوع الذى يصادفك مرتين ثلاثة فى حياتك كلها ، تبقى طاير وحاسس بدماغك جوه السحاب ، لما وصلت لهذه الحالة قمت على حيلى وخرجت ، بعد كده الإنسان ممكن يهلوس أو يدخل فى إغماء أو أى مصيبة تحصل له.

وأنا فى هذه الحالة النادرة من الانسجام والدنيا فى منتهى الهدوء والشارع ساكن تمامًا ، مرت سيارة بسرعة جنونية وبعد عدة أمتار فرملت بشدة ، صرخة العجل على الأسفلت صاحبت آلة التنبيه التى

انطلقت بأعلى صوتها ، والسيارة مالت إلى يمين الشارع ثم ارتدت إلى اليسار فى لحظة ، لتتفادى كلب عم عبد الهادى حارس المشتل وهو يعبر الشارع بلامبالاة ودون أى سبب فى هذه اللحظة تحديدًا.

كلب صايع وأجرب يحوم حولنا عادة أثناء القعدة ، وتقريبًا أدمن شم دخان الحشيش ، أعتقد أنه كان مسطولًا وهو يعبر شارع الكورنيش متمهلًا دون أن يعبأ مطلقًا بالسيارة التى كادت تدهسه ، ولا بسائقها الذى أخرج رأسه من الشباك وسب ميتين أمه قبل أن يواصل طريقه.

ساد السكون مرة أخرى كأن شيئًا لم يكن ، هذا السكون الذى يشعرك بالونس والاطمئنان ، وهو غير السكون الموحش الذى يثير الانقباض والكآبة ! وهو شعور أكرهه ولا أطيقه ، سمعت بداية النغمة عند هذه اللحظة ، مجموعتان من آلات الكمان تتبادلان الحوار ، كل منهما تعزف جملة لحنية مختلفة فى تآلف هارمونى براق ومبتكر ، يخطف الأذن فلا تملك إلا الإصغاء ، ينساب بعدها اللحن متدفقًا بمشاركة عازفى الفرقة الموسيقية.

كنت فى حالة من الذهول وأنا أسرع الخطى وأبحث عن أى وسيلة مواصلات تقلنى إلى البيت ، تقريبًا كنت أجرى على الرصيف غير عابئ بشىء إلا اللحن الذى أستولى على عقلى تمامًا ، وبمجرد وصولى بدأت على الفور فى العمل ، أمسكت بالكمان وأخذت أعزف موسيقى اللحن وأعيده مرات عديدة ، ثم سجلته على شريط كاسيت ، بعدها بدأت فى عزفه مرة أخرى على العود بطريقة مختلفة .. ظللت حتى الصباح أعمل كالمسحور إلى أن انتهيت من تسجيل القطعة الموسيقية التى هبطت على عقلى من السماء.

***

عشت ما يزيد على العام طائرًا فوق السحاب ، أحصد ثمار النجاح

، الدعـوات تنهـال علـيَّ بشـكل يومـى ، وحفـلات فى المنتديـات العامـة والخاصـة تقـام عـلى شرفى ، النـاس يتلهفـون عـلى مصافحتـى والحديـث معـى ، عرفـت معنـى النجـاح كـما ينبغـى أن يكـون.

شـىء كالهسـتيريا ، جـدول مواعيـدى مشـحون ، أعتـذر رغـمًا عنـى عـن دعـوات لم أكـن فى أكثـر أحلامـى تفـاؤلًا أتوقـع أن أدعـى إليهـا ، كانـت خطابـات المسـتمعين تنهـال كالسـيل عـلى الإذاعـة تلـح فى طلـب الأغنيـة ، برغـم كلماتهـا البسـيطة الأقـرب للسـذاجة والتـى كتبهـا شـاعر صعلـوك كنـت قـد تعرفـت عليـه مصادفـة ، لكـن الغريـب أن هـذه الكلـمات توهجـت كالحريـق مـع موسـيقى اللحـن كأنهـا خلقـت لـه.

ملأنـى زهـوًا أن كبـار المطربـين والمطربـات كانـوا يغنونهـا فى جلسـاتهم الخاصـة التـى حـضرت الكثـير منهـا ، بـل إن بعضهـم عاتبنـى لأننـى لم أعـرض عليـه الأغنيـة أو بمعنـى أكثـر دقـة " اللحـن " قبـل أن أسـلمه لفرقـة الإذاعـة ، طبعًـا وقتهـا لم يكـن باسـتطاعة الواحـد أو الواحـدة منهـم أن يـدرك أن مقابلتـى لهـم قبـل اللحـن كانـت عمليـة شـبه مسـتحيلة ، وكنـت سـأواجه بالاعتـذار أو الامتعـاض أو عـدم الاهتـمام قبـل أن تتـاح لى فرصـة عـرض أى شـىء أمامهـم ، لم يكونـوا قـد تحولـوا إلى أصدقـاء بعـد ، لكنهـم طلبـوا منـى اللحـن الجديـد ، تقريبًـا جميعهـم ، تبـاروا فى إرضائـى وكل منهـم يطمـع أن يفـوز باللحـن القـادم !

احتفـى بـى أصدقائـى القدامـى فى غـرزة المشـتل ، أقامـوا حفلـة تليـق بالملحـن المشـهور الـذى أصبحتـه ، هنأونـى وهـم يدندنـون بالأغنيـة ، وحيونـى بالتعمـيرات المعتـبرة بكـرم وأريحيـة ليسـت مـن طباعهـم.

قبـل هـذا اللحـن كانـت لى محـاولات ، ألفـت ثلاثـة ألحـان ، أعـترف أنهـا باهتـة وعاديـة ، لم يـرض أن يغنيهـا أحـد إلا مطـرب ناشـئ وقتهـا ، اختـار أن يغنـى واحـدًا منهـا عـلى مضـض ، وكانـت هـذه أسـوأ بدايـة لـه إذ ظـل ناشـئًا حتـى يومنـا هـذا ..

حياتى تعتمد على العزف لا التلحين ، أعزف الكمان فى الفرق الموسيقية التى تصاحب مغنيين الدرجة الثانية والثالثة ممن يغنون فى الأفراح ، انقطعت عنهم بعد نجاح اللحن معتقدًا أنى أصبحت واحدًا من الأساتذة الملحنين وأن الألحان الناجحة ستتوالى ، فلا يمكن للقريحة التى أبدعت هذا اللحن العبقرى أن تنضب.

نحيت الكمان جانبًا وأمسكت بالعود وأمامى أشعار غنائية لشعراء الصف الأول ، قدموا إلىَّ أعمالهم عن طيب خاطر منتظرين أن تتحول إلى أغان مبهرة حسبما ظنوا ، كنت أجلس طوال الليل أحرق فى الحشيش وأنا أنظر إلى الكلمات والعود بين يدى ألاعبه وأكاد أستجديه لينطق ، لتخرج منه نغمة موسيقية واحدة أبنى عليها اللحن ، أضعه بجانبى لأقرأ أبيات الأغنية وأنا أصفر بفمى وأهز رأسى كالمجنون ، أوقع على المنضدة بأصابعى عسى أن تنطلق الجملة اللحنية الأولى ..

باختصار بذلت كل ما فى وسعى وأنا أتمزق غيرة وحسرة ، إذ إن صديقى شاعر الأغنية انطلق كالإعصار وبفضل لحنى ليصبح من كبار مؤلفى الأغانى ، وأغرق سوق الغناء بإنتاجه الغزير المتدفق ، وتحول من الصعلكة واستجداء السيجارة وكوب الشاى على المقاهى ، إلى أحد وجهاء الفن والثقافة أيضًا !

جربت فى النهاية أن أستخدم خبرتى الموسيقية لألفق لحنًا أخرج به من هذا المأزق الذى وجدت نفسى فيه ، فأرغمت نفسى على الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك التى اسمعها أحيانًا ولكننى لا أحبها ، سوناتات وسيمفونيات إلى آخر هذه الأعمال الصعبة المعقدة ، لكن التجربة لم تفلح أيضًا ، أصبت بعجز تام ، حتى التلفيق لم ينفعنى إذ إنه يحتاج إلى شىء من الموهبة والمهارة التلحينية ليخرج العمل مقبولًا ولو بأدنى مستوى.

انفض الناس من حولى تدريجيًا ، أصبحت ذكرى ، وانتهى النجاح

الساحق فجأة كما بدأ ، وقف اللحن أمامى كالسد المنيع ، إذ فقدت بعده القدرة على صياغة مجرد لحن عادى كتلك الألحان الثلاثة التى صنعتها وأنا أمتلك الأمل والطموح ، لكنه جاء كالكارثة قضى على الطموح والأمل معًا ، ويبدو أننى لم أحسن استغلال هذه الفرصة التى أتاحها لى القدر ، لا أعرف كيف ولكننى بكل تأكيد كان لا بد أن أتعامل بشكل مختلف مع هذا النجاح الذى حصلت عليه بضربة حظ !

opeikandl.com

obeikandl.com

الملف

obeikandl.com

بعد الكأس الثالثة ، رفع مستر أندريا عينيه التى بدا فيهما أثر احمرار خفيف ونظر إلى جاره ماجد اسكندر ، ثم قال بجدية.

- ماجد هل كنت دائمًا مسيحيًا ، أم أنك تحولت إلى المسيحية ؟!

برغم تعود ماجد على أسئلة مواطنى هذا البلد الذى يعيش فيه منذ ستة عشر عامًا ويحمل جنسيته منذ سبع سنوات ، لكن السؤال هذه المرة كان غريبًا ومختلفًا عما تعوده ، خاصة وهو يأتى من مستر أندريا جاره المتقاعد حديثًا من منصب قيادى فى شرطة المدينة التى يعيشون فيها.

منذ انتشار الفضائيات وهو يتلقى كل عام عند أعياد الإسلام فيضًا من الاستفسارات والأسئلة ، حتى من زملائه فى العمل الذين يعرفونه منذ سنوات طويلة ، عند بداية رمضان لا يعدم من يسأله عن الصيام ، وفى عيد الأضحى لا بد أن يوجه له السؤال التقليدى عن الذبح من أحد ما ، إلى آخر تلك الأسئلة التى توجه إلى المسلمين فى أوروبا ! أما إصراره على أنه مسيحى فلا يمثل بالنسبة لهم فارقًا يذكر.

وضع الكأس على المنضدة الصغيرة الموضوعة أمامه فى صالة بيت أندريا ليستطيع استخدام يديه وهو يتحدث ، وهى إحدى عادات الشرقيين التى لم يستطع أن يتخلى عنها أو يغيرها ، حركات اليدين وإشاراتها وتغيير طبقات الصوت حسب طبيعة الكلام الذى يستمد حرارته عند أهل الشرق من الشمس الساطعة دومًا فى سماء بلادهم ، ثم نظر إلى زوجته الجالسة ملتصقة به كأنما يطلب منها المساندة فى مواجهة جهل أندريا زوج قريبتها.

- أنا مسيحى منذ المولد .. مسيحى أبًا عن جد ، لقد عرفنا

المسيحية فى مصر قبلكم بكثير.

– نعم .. نعم أعرف أنكم دولة قديمة ذات حضارة سابقة ، لكن ليس هذا ما قصدته من سؤالى.

أجاب أندريا بصوته ذى الطبقة الواحدة والكأس الرابعة فى يده الثابتة كالجليد ، سكت لبرهة كأنما تردد ثم أكمل.

– أعنى لقد كان لك ملف فى مكتبى ، وأردت أن أتأكد منك شخصيًا.

انتبه ماجد بكل عقله وقال مستغربًا:

– لماذا .. ماذا تعنى بالملف ؟

بدا شىء من الحرج على مارجريت زوجة أندريا التى مازالت تعمل فى إدارة التحقيقات التابعة للشرطة ، وهى سيدة جميلة تصغر زوجها بعشر سنوات على الأقل ، فقالت ملاطفة لضيفيها.

– ماجد لا تنزعج إن الأمر بسيط .. لقد كنت أنا أيضًا أعلم به.

شدت دانييل زوجة ماجد ظهرها واعتدلت من جلستها المسترخية وبدت متحفزة ، لكن أندريا بادرها قبل أن تتكلم قائلًا وهو يوجه حديثه إليها وإلى زوجها معًا.

– الموضوع مرتبط بعمل الشرطة ، تحريات شكلية لا أكثر تشمل معظم المهاجرين.

وقعت كلمة مهاجرين على أذنى ماجد أسخف وقع ، لا يحب هذه الصفة وعمل جهده لسنوات ليتخلص منها ، تذكره بأيامه الأولى ، الحياة فى بيوت الشباب والعمل فى الوظائف الدنيا بالفنادق والمطاعم ، وهو الطريق الذى بذل جهدًا مضنيًا حتى لا يسير فيه إلى نهايته مثل معظم الشبان المصريين ، من نجح منهم أصبح يمتلك مطعمًا أو حتى الفندق الذى عمل به ، ومن أخفق استمر كعامل أو طباخ.

لكنه اختار أن يدرس فى الجامعة ليعادل درجته العلمية ، بكالوريوس صيدلة جامعة عين شمس ، ثم حصل على دبلوم دراسات عليا فى تخصص دقيق ، أمضى الثلاث سنوات الأولى يختصر من ساعات نومه ويقتصد فى طعامه ، حتى يوسع لقدميه أرضًا يستطيع أن يقف عليها باطمئنان ، فى مجتمع لا يعترف إلا بالكفاءة ولا يعطى وظيفة مهما كانت بسيطة لمن لا يتقنها.

– إن ماجد مسيحى ومتدين أيضًا.

قالت دانييل وهى لا تخفى استنكارها:

– أعرف لقد أخبرتهم بهذا ..

قاطعه ماجد بهدوء و لكن بكلمات حازمة قائلًا :

– سيد أندريا من فضلك أخبرنى .. ما الموضوع بالضبط ، هل أنا موضع شك عند أجهزة الأمن ؟

ليس من السهل أن يرتبك رجل شرطة عتيد مثل أندريا فى حوار كهذا ، لكنه بشكل ما أحس أنه تورط فى الكلام ، وأراد أن يناور ليغير الموضوع ويطمئن ماجد بكلمات جوفاء ، لكن الويسكى الذى شربه وإصرار ماجد جعلاه فى النهاية يستسلم.

– سيد ماجد إنك صاحب نشاط كبير فى الجالية العربية هنا.

– بالطبع فأنا نائب رئيس الجالية.

– لقد قمت بدور مهم فى جمع التبرعات للفلسطينيين ، وما زلتم ترسلون لهم مبالغ شهرية.

– نعم .. إنه واجبى.

– إنك أيضًا تساعد الوافدين الجدد من بلادكم فى السكن ، والعمل ، وإجراءات الإقامة.

obeikandl.com

– .. إننا فى دولة ديمقراطية ونحن لا نقوم بعمل سرى ، كل ما نقوم به قانونى والجاليات الأخرى تقوم بنفس العمل ، أليس كذلك ؟!

– نعم .. نعم لكن وضع جاليتكم تحديدًا تغير بعد أحداث سبتمبر ، نظرة الأمن اختلفت ، أما بالنسبة لك فنشاطك الزائد وضعك تحت أعين الأجهزة السرية ، لا أعرف أى شيطان جعلهم يعتقدون أنك مسلم متحول أو متنكر فى شخصية مسيحى !

ضحك ماجد بعصبية وقال مذهولًا:

– هل يعتقدون ذلك حقًا ؟

– هذا ما كتب فى ملفك ، أنا شخصيًا رفضت هذا الهراء عندما وصل إلى مكتبى فى المرة الأولى ، وقلت إننى أعرفك وأنك بمثابة قريب لى بعد زواجك من دانييل العزيزة ، كما أنك إنسان واضح لا يوجد غموض فى حياتك يثير الشبهات ، لكنهم أعادوا الملف مرة أخرى منذ عدة أشهر قبل تقاعدى بأسابيع ، وفيه ما يؤكد معلوماتهم عنك كعنصر إرهابى نائم.

– ماذا ؟

صاح ماجد وقد لطمته الكلمة الغريبة ، هذا المصطلح الذى لم يسمعه من قبل ، إرهابى نائم .. بعد كل هذه السنوات التى عاش فيها كمواطن محترم فى هذه الدولة ، لم يرتكب حتى مخالفة مرور ، وحرص على مراعاة العرف وتقاليد المجتمع الذى أعتقد أنه انتمى إليه تمامًا.

يسكن الحى الأرقى فى المدينة ، ويشغل وظيفة متميزة فى إحدى أكبر شركات الأدوية ليس على مستوى البلد وإنما على مستوى العالم ..

يستطيع الآن فقط أن يفهم بعض التصرفات التى تعامل معها ببساطة من قبل ، رجال الشرطة الذين حضروا إلى مكتبه مرات

ليسألوه عن أفراد من الجالية العربية أيعرفهم ، أعتقد أنها إجراءات خاصة بالإقامة أو الجنسية التى يريدون الحصول عليها ، سؤال الدين كان هو الأهم ، يتوقفون عنده طويلًا ، يستفسرون عن تفاصيل بدت له وقتها ساذجة ، لكن هذا لم يثر فى نفسه أى شبهات ، لعلمه أن الدين يأتى على هامش الحياة عند الأوربيين ، مجرد هوية ثقافية لا عقيدة كما هو عند الشرقيين .. معظمهم على الأقل.

أكمل أندريا حديثه الذى توقف بعد صيحة ماجد:

– فى المرة الثانية تشككت أنا فى معلوماتى عنك أمام إصرار التحريات ، ومن ساعتها وأنا أريد أن أسألك عن الحقيقة ، لكننى ترددت كثيرًا فى هذا الأمر .. حتى هذه الليلة.

– إنه شىء سخيف.

قالت دانييل مستاءة.

– إنه كذلك بالفعل ، ماجد أرجو ألا تخرج بانطباع سىء عن بلدنا وهى بلدك الآن ، بسبب هذا الكلام الذى دار بيننا ، فكما قلت لك فى البداية إنها مجرد إجراءات وجمع معلومات تقوم بها أجهزة الأمن.

– يعتبروننى إرهابيًا ..!

قال ماجد وعلى وجهه ابتسامة باهتة وهو ينظر إلى أندريا ومارجريت بعتاب كأنهما المسئولان عن تصنيفه المجحف ، برغم معرفته بمدى تقديرهما له ، كانا أكثر الجميع فى عائلة دانييل ترحيبًا بزواجه منها ، مما جعله يوافق على الفور عندما عرضت عليه دانييل أن ينتقلا من المبنى الذى كانا يسكنان فيه بالحى القديم من المدينة ، إلى شقة تقع فى نفس العمارة التى يقطنها أندريا ومارجريت ، وسعد خلال سنوات بجيرتهما الطيبة.

فكثيرًا ما كانوا يقضون عطلات نهاية الأسبوع معًا هم الأربعة

فى رحـلات خـارج المدينـة أو إلى البحـر ، وأحيانُـا يقضـون الأمسـيات فى المـسرح والحفـلات الغنائيـة ، عـدم الإنجـاب قـارب بينهـم بشـكل مـا ، لكـن ماجـد شـعر بعـد هـذه الليلـة بالغربـة بينهـم ، رغـم اعتـذار مارجريـت وأندريـا لـه ودفـاع دانييـل الحـار عنـه، عـاوده حنـين إلى القاهـرة وشمسـها الحـارة وجوهـا المـترب الخانـق وضجيجهـا وصخـب أهلهـا وزحامهـا القاسـى الـذى فـر منـه يومُـا مـا.

obeikandl.com

obeikandl.com

غُراب عجوز

obeikandl.com

لم تدم علاقتنا طويلًا ، كم عدد الأيام التى جمعتنا ، لا أذكر الآن ، لا بل أتذكر كل شىء بمنتهى الدقة ، هأنذا أشرع فى الكذب من الجديد ، لن أكذب عليكِ ثانية .. أعدك ، على الأقل هذه المرة ، أريد أن أتكلم معكِ بكل صراحة ، فقد قتلنى الحنين وضُعت فى متاهات الحياة بدونكِ ، لن أكابر وأدعى بعد الآن ..

أريد أن أجد بعض السلوى فى الحديث معكِ ، أرجوكِ لا تشيحى بوجهك كما كنتِ تفعلين فى الماضى بعد أن افترقنا وبُعدت بنا السبل ، كنتِ قاسية ، وكنت أنا عنيدًا ، لم أدرك وقتها معنى وجودك فى حياتى ، وإنكِ فرصة السعادة الوحيدة التى أتاحها الزمن لى ، ولم يسمح لها أن تعود مع غيركِ على الرغم من محاولاتى !

إن أجمل الأيام هى التى عرفتكِ فيها ، وأسعد اللحظات هى التى جمعتنى بكِ ، اعذرينى ربما لا يليق أن أصرح بهذا الآن ، بعد هذه السنوات ، لكننى أجد من النشوة لصحبتكِ ما يطلق لسانى ، أشعر معكِ .. أنتِ دون سواكِ من الناس بالرغبة فى البوح.

هل تذكرين ، كنا نتكلم لساعات دون أن يدركنا الزهق ، ربما فى المرة الأولى ، لا بد أن أخبركِ وقد قررت أن أكون صريحًا ، أننى شعرت بالملل بعد ساعة أو أكثر حتى تمنيت لو أنكِ توقفت عن الكلام ، زهقت من ثرثرتك ومن شلال الكلام الذى اندفع من بين شفتيكِ وأنتِ تكادين تتقافزين على الأرض لشدة الحماس الذى غمرت به لقاءنا ، أحسست بكل هذا ، اندهشت وربما استغربت من إشراقكِ علىَّ لعلمى بتحفظك ورزانتكِ ، حتى صوتك الهامس علا بالضحك وانطلق بلا تحفظات ، كنتِ معى على غير ما عاهدتك مع الآخرين بما فيهم أنا نفسى أثناء وجودى بينهم ، أو وجودنا أنا وأنتِ بينهم

، أما فى هذا اللقاء الذى تم بالصدفة وفى مكان لم أتوقع أن أراكِ فيه ، فقد كان الأمر مختلفًا ومفاجئًا ؟!

مع حرصى التام على مشاعركِ ، قابلت لهفتك بتحفظ ، فى البداية اعتقدت أن لقاءنا الأول هذا لن يتجاوز السلام وتبادل عبارات المجاملة السريعة ثم ينصرف كل منا إلى طريقه ، لكنكِ بقيت ، ليتكِ بقيتِ إلى آخر العمر ، وبدأت تتحدثين حديث من لا يود الانصراف ، لم أكن فى عجلة ساعتها ، لكننى كنت منشغلًا عنكِ ، لم أفهم ساعتها إنكِ النصف الآخر ، ربما تكونين أنتِ قد أدركتِ هذا بشفافيتك وصفاء روحكِ ، وتعاملتى معى وفق هذا الإدراك ، احتاج الأمر معى إلى وقت طويل ، أطول بكثير مما ينبغى ، لأعرف بدورى معناكِ ، وأنكِ ولا أحد سواكِ نصفى الآخر الذى أكتمل به.

كان الأمر أعمق بكثير من الحب أو العشق ، أكاد أحفظ كلماتك تلك التى سمعتها وأنا أتملل ، لا أعرف كيف انطبعت فى عقل كأثر لا يمحى ، ككل ما له علاقة بكِ.

على مدى الأيام التى جمعتنا ، ليتها دامت ، كنت أقاوم لا أدرى لِمَ مشاعرى نحوكِ ، نعم لم أترك نفسى على سجيتها أبدًا ، حسابات عقلى الذى لا يهدأ كان لها شئون أخرى بعيدة كل البعد عن العاطفة ، رغبتى فى السفر ، رفضى للقيود ، ولعى بالفتيات ومصاحبتهن دون تحمل التبعات ، كنت غير متقبل لفكرة الارتباط بواحدة بعينها حتى لو كانت أنتِ ، شوائب كثيرة عكرت تفكيرى فى الوقت الذى كانت علاقتنا تنمو فيه على مهل ودون تعجل من ناحيتى أنا على الأقل.

المحزن فى الأمر أننى فى هذا الوقت كنت أراكِ كغيركِ ، بالطبع كنت سعيدًا بكِ وبأنكِ انضممت وبمحض إرادتكِ إلى قائمة صديقاتى ، لا لست عابثًا ، أرجو أن تفهمى كلامى على الوجه الصحيح ، كنت فقط شابًا لا أكثر ، المؤسف أن حبى لكِ لم يحدث من النظرة الأولى أو من

اللقاء الأول ، بل إننى لم أهتم بالتعرف عليكِ ، أخبرتك إننى سأكون صريحًا إلى أقصى حد .. سامحينى.

أعتقد أن حُبكِ بدأ كشرارة بسيطة لا تكاد العين تلمحها ، لكنه توهج حتى أحرق حياة بأكملها ، حياتى أنا بالطبع.

إلى هذا الحد يا سيدتى ، نعم .. نعم لم تعلمى بهذا من قبل ، ها أنا أخبرك الآن أنكِ كنتِ وما زلتِ الحب الأول والوحيد فى حياتى ، وإن إدراكى لهذه الحقيقة حطمنى ، لأننى عرفت ذلك متأخرًا جدًا بعد أن افترقنا.

كنتِ متعجلة على الرحيل ، لم تعطنى الفرصة لأقولها لكِ ، لكم وددت لو أخبرتك حتى لو كان الثمن جزءًا من كرامتى ، فتغيبى عن حياتى وأنتِ تعرفين حقيقة تأثرى بكِ ومدى تأثيرك على نفسى وعلى حياتى ، أننى أصبحت أحسب الزمن قبل وبعد علاقتى بكِ ، قبل حبكِ كنت فى حال وأصبحت بعدك فى أحوال أدنى مراتبها الندم ..

أعتب عليكِ بشدة ، لماذا لا تأتين فى أحلامى ، حتى فى هذا أنتِ قاسية ، لا أطمع أن أراكِ فى اليقظة لكن الأحلام ما ذنبها ؟

لن يصيبك شر لو التقينا فى غيب الحلم ، تلتقى روحانا وتسمحين لى أن أقولها لكِ و نحن متحرران من قيود الواقع وظلم القدر ، الذى سمح لى أن ألتقى بكِ وأعرفك لهذه المدة القصيرة ، ويكتمل يقينى بأنكِ النصف الذى انشطر منى فى الأزل ، بعد فوات الأوان ، وأن غيابكِ لا يعنى سوى اكتمال دائرة الشقاء حول أيامى ، ضيعتكِ فضاعت معكِ فرصتى فى السعادة ، فغبتِ على هذا النحو دون أن تعرفى عمق أسفى ومدى حزنى ، أحبك ، أحبك كما لم أحب أحدًا فى حياتى ، أقولها الآن وأصرخ بها لعلك تسمعينها.

هل تتذكرينى ، هل أخطر فى بالك ، تلعنيننى فى سرك أم تشيحين

بوجهك فى غضب كما فعلتِ مرة.

لست بهذا السوء أرجو أن تصدقى ، غُم علىَّ فلم أتعرف عليكِ ، ارتبطت بأخرى ظننت لفترة أنها أنتِ ، تفهمين بالطبع ما أعنيه ، أقصد نصفى الآخر ..

علاقة عابرة لم تدم طويلًا ، لكنها كانت كافية لأفقدك خلالها ، خرجت الأخرى من حياتى بغير أثر ، وبقيت أنتِ وهواك وأيامكِ ذكرى أحن إليها وداء لا أشفى منه ، أصبحت قيدًا كان لا بد أن يلفنا معًا ، لكنكِ ذهبتِ وتركتنى أرسخ فيه وحدى.

انقطع ما بيننا بضربة مفاجئة شتت شملى ، لم أقصد يوماً أن أمسكِ بسوء أو أن أجرح مشاعرك الرقيقة ، صدقينى.

كنت سعيدًا بكِ كصديقة وزميلة أحب أن أراها وأتكلم معها ، لم أكن قد بدأت السير على دربك الصعب بعد ، هذا الدرب الذى أسير عليه حتى الآن ، بدونك ، منذ هذا اليوم الكئيب الذى عرفت فيه بخبر خطوبتك !

أخبرنى أحد زملائنا وابتسامة الشماتة الواسعة تطل من عينيه ، بل من وجهه كله ، كنت أعتبره صديقًا حتى تلك اللحظة التى كشف فيها ربما دون أن يدرى ، عن مدى سعادته بتعاستى المقبلة.

تذكرين بالتأكيد كم كنت سعيدًا ومقبلًا على الحياة فى أيامكِ ، وقت كنا نلتقى ونتحدث ولا نشعر بالوقت ، ودبيب خفيف من النشوة يسرى فى نفسى ، لم يكن إلا مقدمات الحب الآتى ، الذى لم يُكتب له أن يكتمل أبدًا.

لكن حظى تغير بعدكِ ، انسحبت السعادة وجرفنى تيار الفشل ، لعلك كنتِ سعيدة الحظ بنجاتك منى ومن تقلب أحوالى وعسرها ! لا أدرى حقيقة إن كان ذلك له علاقة بكِ ، فقدت مع غيابك حظى ، أم أن حياتى الصعبة كانت قدرًا نجوت أنتِ منه هكذا ببساطة

، أم أنـكِ عـلى الطـرف الآخـر تعانـين ، فأنـا واثـق أنـك لـن تسـتطيعى الامتـزاج مـع أحـد كائنًـا مـن كان ، أنـا وأنـت فقـط قابـلان لذلـك.

لابـد أنـكِ تدفعـين ثمـن تسرعـكِ ، لا أقصـد الشـماتة بالطبـع ، فـلا أتمنى لـكِ إلا كل الخـير ومـن أعـماق قلبـى ، لكـن هـذه طبيعـة الأشـياء ، كان بإمكانـكِ أن تعطيننـى قليـلًا مـن الوقـت ، بعـض الصـبر لا أكثـر ، كنـت قـد بـدأت أتهيـأ للاتجـاه نحـوكِ ، متخلصًـا مـن أعبائـى وأفـكارى القديمـة سـاعيًا نحـو قيـدكِ ، شرعـت بالفعـل فى مـد يـدى إليـكِ ، سـعيدًا أمنـى نفسـى ، أرى مـن خـلال الوهـم طريقًـا وارفًـا نسـير فيـه عمـرًا ، لكننـى أبطـأت وضيعـت الوقـت ، فدفعـت ثمـن أهمـالى واسـتهتارى باهظًـا.

أحـوم أحيانًـا حـول بيتـكِ القديـم ، بيـت أبويـكِ ، كغـراب عجـوز أضنـاه الفقـد يبحـث بـلا طائـل عـن مـأوى ، لا أرغـب أن أراكِ الآن ، أتمنـى ذلـك ولا أرغبـه فى نفـس الوقـت ، أخشـى مغبـة الزمـن ، لا أحـب أن أرى أثـر السـنين عليـكِ ، لعلـه ترفـق بـكِ فحفـظ عليـكِ نضارتـكِ ، لكننـى مـع ذلـك لا أتحمـل مجـرد التفكـير فى أنـكِ قـد غادرتـى سـن الشـباب !

أتقبـل ذلـك مـع الجميـع حتـى أنـا نفسـى ، أرضى بحكـم الزمـن ، بـل واستسـلم لـه عـن طيـب خاطـر فلـم أر منـه مـا يُسر عـلى أيـة حـال ، يكفيـه أنـه فـرق بينـى وبينـكِ ، وتركنـى لأعيـش حيـاة قاحلـة عاديـة أمـضى فيهـا تائهًـا بـلا أنيـس ، أتلمـس قطـرة مـاء ..

أنـا لا أتحـدث إليـك أيتهـا السـيدة ، بـل إليها هـى ، أنـتِ لا تعنين لى شـيئًا ، ولا أكاد أهتـم بـكِ وبحياتـكِ المحملـة بأعبـاء الأبنـاء والمشـاكل التـى مـن المؤكـد أنهـا لا تنتهـى بينـكِ وبـين الرجـل الغريـب الـذى تزوجتيـه ، أنتظـر أن تطـل عـلىَّ مـن مدخـل البيـت أو مـن نافـذة شـقتكم الفتـاة ذات الثانيـة والعشريـن ، تلـك التـى أحببتهـا يومًـا مـا ومازلـت.

obeikandl.com

obeikandl.com

الوكـــر

obeikandl.com

دون أدنى ضجة دخل ملتمسًا الدفء ، اتجه بسرعة إلى أحد الأركان ، غطى نفسه لينام ، لابد أن يستريح ليهضم وجبة الطعام التى ابتلعها منذ قليل ، تلك عادته التى جُبل عليها ، يبحث عن مأوى آمن لينام فيه بعد الأكل ، برغم أنه قضى عمره يعيش فى هذه المنطقة ، لكنه لم يتردد فى الدخول إلى هذا المكان الجديد المبنى حديثًا ، تلك طبيعته ، لا يندهش ولا يخشى الأماكن فكلها عنده سواء ، فى مثل هذه الليلة الباردة يسعى للدفء ، أطمئن لعدم وجود غرباء وهو يتحسس طريقه بدقة رغم الظلام الحالك ، أنزلق برفق وضم جسده بإحكام ليذهب فى ثبات عميق متمتعًا بالدفء والأمان.

بعد شروق الشمس بقليل انتبه بغتة على ضجة ذبذبت الأرض من تحته ، أصوات صرير وزمجرة لم يعتدها من قبل ، تيقن من وجود كائنات غريبة تتحرك خارج الجدران ، خطوات سريعة تدب على الأرض بقوة ، عددهم كبير ، قطيع اقتحم عليه المكان ، رقد كامنًا وقد انكمش على نفسه حتى يمروا بسلام ويدعوه فى حاله ، لكن الوقت أخذ يمر وهم يحومون حوله وأصواتهم العالية تفزعه وتفسد عليه وقت راحته ، ما زال أمامه ساعات طويلة ليهضم الطعام ويخرج من حالة الخمول ويستعيد نشاطه ، أصابه التوتر من الحصار وأدرك أن تحركه من مكانه أو محاولته الخروج إلى رمال الصحراء للبحث عن مأوى بين الصخور أمر محفوف بالمخاطر.

اقتحم ضوء الشمس مكمنه مع دوى صرير الباب ، تحرك الهواء الراكد حوله فحمل إليه رائحتهم ، لم يشم هذه الرائحة من قبل ، لكنه امتلأ رعبًا منها ، وجودهم مخيف ليسوا كبقية المخلوقات التى يعرفها ، يريد الهرب والابتعاد عنهم ، لديه يقين غريزى أنهم مؤذون

بطبيعتهم ، يرفع رأسه بحذر ويخرج لسانه ليتحسس طعم الهواء عله يجد طريقًا للفرار.

– ثعبان.

صرخة أطلقها أحد العمال ، فتجمد الجميع فى أماكنهم للحظات ثم تراجعوا تلقائيًا خطوتين للوراء.

– فين يا وله ؟

صاح أكثر من واحد بتساؤل يحمل من الإثارة والترقب أكثر مما يحمل من الفزع.

– هناك ، لا بد تحت أشولة الأسمنت الفاضية.

– ابن ديك الكلب ، إزاى دخل هنا ، نهار أبوه أسود.

تجهزوا بالعصى الغليظة ورفعوا جلابيبهم وعقدوها فوق الخصور وهم يتقدمون بخطوات ترتعش من فرط الرغبة ..

لكزه أحدهم بالعصا ، استثار وشعر بالفزع ، فرفع رأسه وهو يفتح فاه وينتصب فى مواجهتهم ، أصدر فحيحه المرعب فى وجوههم وقد استعد تمامًا للقتال برغم الهلع الذى تملكه ، أطلق بخة سم لكنها طاشت فى الهواء ، إنها الحيلة الوحيدة التى يمتلكها للدفاع عن نفسه ، جُن جنونه عندما لم تفلح فى إبعادهم ، فأخذ يحرك رأسه متأهبًا هذه المرة للهجوم والعض.

تراجعوا خطوة وهم يطوحون برؤوسهم ليبعدوا أعينهم عن قذفة السم ، ثم أطلقوا وابلًا من السباب واللعنات وهم يتقدمون ثانية وقد بلغ بهم التحفز مداه ، دفع أحدهم عصاه وهو يمسكها من أقصى طرفها فنخسه نخسه قوية ، فهب يكاد يقف وهو يفح من الذعر ، فتلقى ضربة هائلة على منتصف جسمه ، فخر مكانه على الفور عاجزًا عن الحركة ، وقبل أن يسكن انتشلته يد من طرف ذنبه

فحاول أن يلتف لكنه لم يستطع إلا أن يحرك رأسه بوهن وجسده يرتفع فى الهواء وينتفض انتفاضات عنيفة لا إرادية ، خلخلته تمامًا حتى فقد القدرة على الحركة واستسلم مذهولًا لليد القوية وهى تطوح به فى عنف وتضربه بالجدار الصلب.

– لا تقتله .. لا ..

قيلت بما يشبه التهليل.

– سأحضر خيطًا وإبرة .. صاح أحدهم فرحًا !

تلوى من الألم ، أراد التملص لكن أصابعهم الخشنة التى تغلظ جلدها من مسك الفئوس والمعاول أطبقت عليه بإحكام وفمه يُشد بالخيط.

ألقوه على الأرض فاندفع من حلاوة الروح نحو ضوء الشمس المنبعث من الباب ليخرج فارًا ، فرجع بركلة إلى جانب الجدار ، رقد مستسلمًا كأنه يعلن انسحابه من المعركة ليتركوه وينصرفوا حسب قانون الغاب الذى يدركه بالغريزة ، لكنه وجد نفسه محمولًا من جديد ، وهم يتقاذفوه فيما بينهم ضاحكين ويكيلون له الضربات ويفركون جلده الناعم بأصابعهم وقد تملكتهم حالة النشوة التى تولدها ممارسة السادية.

قال من يبدو أنه أحكمهم أو أكثرهم رحمة ، يكفى هذا .. اقتلوه حتى لا يتعذب ، توقفوا برهة حائرين كأنما أحزنهم أن تنتهى لعبتهم المسلية هكذا بسرعة ، لكن شيطانهم صاح ، لنضعه فى برميل الجير الحى ، أفرحتهم الفكرة ، تحمسوا لها بجنون.

نط مكتويًا بنار الجير حتى كاد يقفز عبر حافة البرميل ، فوضعوا عليه الغطاء منتشين بصوت الخبطات المتوالية وهى ترن على جدار البرميل المعبأ حتى ثلثه ، همد بعد عدة دقائق ، أعمت خلالها المادة الكاوية عينيه ، دون أن تدرك غريزته السبب الذى يدفع هذه

obeikandl.com

المخلوقـات الشرسـة إلى تعذيبـه.

كانـت جثتـه المهترئـة مكومـة بجـوار البـاب يزحـف عليهـا النمـل وهـم يعملـون فى الموقـع النائـى بهمـة ونشـاط ويتبادلـون الضحـكات المرحـة عـلى غـير عادتهـم.

obeikandl.com

obeikandl.com

فانوس مكسور

obeikandl.com

قدر أن الأمر سيستغرق نصف ساعة على الأكثر ، لكنه مع ذلك أعطى لنفسه فسحة من الوقت ، فحضر مبكرًا ساعة كاملة ، كان الميكانيكى على علم بما تحتاجه السيارة ، أخبره بالهاتف وحدد معه الميعاد.

– سوف نحتاج سيليكون يا باشا وأنبوبة مادة لاصقة ، بعد إذنك أعط الولد عشرين جنيهًا ليشتريها.

– حاضر.

بدأ الميكانيكى يفك فانوس الإضاءة المكسور وهو يشتكى من صعوبة العمل فى هذا النوع من السيارات ، حيث أن جهاز التكييف يشغل حيزًا كبيرًا خلف الفانوس مما يسبب صعوبة فى الفك والتركيب.

– إنت عارف سعادتك ، لو جاءنى زبون عادى ، لا يمكن أعمله هذا الشغل ، يروح يشترى فانوس جديد بعلبته ، يركب على طول ونخلص ، بدل التعب ده !

– إنت كلك بركة ، أنا كما تعرف أتعامل مع هذه الورشة منذ أن اشتريت السيارة ، إنها سيارتكم ، أنتم تعرفونها أكثر منى.

– هذا شرف لنا يا باشا ، يا ليت كل الزبائن مثل سعادتك.

استغرق فك الفانوس من السيارة وإصلاحه ولصق الجزء المكسور وتركيب الوجه الزجاجى ما يقرب من الساعة والنصف ، بعدها قال الميكانيكى وهو ينهض من أمام المنضدة الحديدية التى يعمل عليها داخل الورشة ،لا بد أن ننتظر نصف ساعة حتى تجف المادة اللاصقة والسيليكون ، ثم أزاح الأنبوبتين جانبًا مع بقية أدوات الشغل ، ولم

يكـن قـد اسـتعمل إلا نصفهـا ، باعتبارهمـا مـن الغنائـم التـى لا يجـرؤ الزبـون عـلى المطالبـة بهـا ، لكنـه قـال مخاطبًـا صاحـب السـيارة الـذى كاد الزهـق يخنقـه.

– ما رأى سعادتك فى كوب من الشاى ؟

– ممكن جدًا.

رفـض الميكانيكـى السـيجارة التـى عـزم بهـا عليـه الزبـون ، وقـال مازحًـا وهـو يشـير بطـرف إصبعـه إلى العلبـة المحليـة الصنـع ، إنـه لا يسـتطيع أن يدخـن هـذا القـرف ، ثـم أضـاف ضاحـكًا وهـو يخـرج سـيجارة مـن علبتـه المسـتوردة.

– والله سعادتك بطل !

جلسـا يشربـان الشـاى ويتحدثـان حتـى تنقـضى نصـف السـاعة ، حـضرت سـيارة أخـرى ، قـام الميكانيكـى ليرحـب بصاحبهـا ويفحصهـا ، ثـم أرسـل أحـد صبيـان الورشـة ليشـترى مـا يلـزم ، وأمـر الآخـر أن يفـك الجـزء المعطـوب مـن المحـرك ، تلقـى صاحـب السـيارة اتصـالًا عـلى هاتفـه المحمـول ، ظهـر الحـرج عـلى وجهـه وهـو يعتـذر عـن التأخـر ، وأخـبر محدثـه أنـه تعطـل فى ورشـة إصـلاح السـيارات ، لكنـه سـينتهى خـلال عـشر دقائـق عـلى الأكثـر.

بعـد سـاعة أخـرى انتهـى الميكانيكـى مـن تركيـب الفانـوس وضبـط إضاءتـه ، ثـم ابتعـد خطوتـين للخلـف وهـو يفحصـه بعينيـه مـن جميـع الزوايـا بإعجـاب ظاهـر قائـلًا:

– يـا سـلام يـا باشـا ، كأنـه جديـد ، لا يمكـن حـد يعـرف إنـه مكسـور ومتصلـح ، سـبحان الله ، يحيـى العظـام وهـى رميـم.

أثنـى الزبـون عـلى العمـل وأبـدى إعجابـه الشـديد وهـو يتأمـل الفانـوس ومقدمـة السـيارة بأكملهـا ، كان هنـاك اعوجـاج بسـيط ، يشـوه

شكل السيارة إلى حد ما ، لكن هذا على كل حال أوفر من شراء فانوس جديد ، وأفضل ما يمكن الحصول عليه نتيجة التلزيق وجبر الكسور.

– ممتاز أنا أشهد لك بالمهارة.

– أى خدمة يا سعادة الباشا ، تحت أمرك.

قال الميكانيكى وهو يفرك كفيه ويمسحهما بفوطة ، ليتلقى أجره على نظافة.

ما إن جلس خلف مقود السيارة وأدار المحرك ، حتى رن هاتفه المحمول مرة أخرى ، قال معتذرًا وبضيق شديد ليبرر تأخره:

– ناس ولاد كلب ، شغلانة تخلص فى ربع ساعة ، الواحد منهم يعملها فى ثلاث ساعات.

obeikandl.com

مرفت وحمودة

obeikandl.com

على أطراف المدينة ، وإن كان هذا التعبير غير دقيق بشكل ما ، فهذه المدينة متشعبة ممتدة فى جميع الاتجاهات بلا حدود ولم يعد لها مركز ولا قلب ، ولم يعد أحد يعرف على وجه التحديد أين تبدأ ولا أين تنتهى ! فهى تشتبك مع المدن المجاورة لها وتتداخل بقسوة مع أراضيها وتلتهم ما يحيط بها من حقول وأراضى زراعية بتوسعها المستمر ولا تبالى بالقرى وأهلها الذين تدهسهم فى طريقها.

فى عمارة بأحد هذه المناطق الطرفية وهى عمارة لم يتم طلاء واجهتها ولن يتم أبدًا ، فجميع مبانى المنطقة لم تتجاوز مرحلة الطوب الأحمر ، حتى أصبح هذا من أعراف البناء وسمات العمارة عمومًا ، توفير أقصى ما يمكن من التكاليف ، ولا مانع من الغش أيضًا فى خلط المون وزيادة الرمل على حساب الأسمنت وتقليل عدد أسياخ حديد التسليح ، مما يجعل المبنى يبدو متداعيًا فور الانتهاء منه ، كأنه بُنى منذ قرون ! فى هذه العمارة التى نعنيها تقع عيادة لأحد الأطباء على مساحة دور كامل ، مما يعنى أنها تزيد قليلًا على المائة متر ، لكنها مجهزة تجهيزًا حديثًا وبها غرفة عمليات صغيرة تشع بالنظافة.

الطبيب رجل شاب وسيم الملامح ، أنيق المظهر إلى حد بعيد ، لكن رائحة العرق تفوح منه فى معظم الأوقات كأنها أحد سماته الأساسية ! يحضر إلى عيادته فى الثامنة مساءً و يبقى بها إلى الثانية صباحًا.

لا تستطيع السيارات اختراق الممرات الترابية التى تقع بين صفوف العمارات ، ليس فقط لأنها مسدودة على الدوام بأكوام الزبالة والمخلفات ، ولكن لأنها أضيق من أن تسمح لأى سيارة بذلك ، هناك طرق يصعب أن نسميها شوارع تحيط بكتل العمائر من الخارج ، وهى بالطبع طرق ترابية غير مسفلته تتلوى ولا تعرف الاستقامة

، تعلو وتهبط ، تتسع وتضيق حسب المساحات التى تقتطع منها الإقامة المزيد من الأكشاك التى تتحول بعد ذلك إلى محلات لها تراخيص ومستندات ملكية ، أو عشش يبنيها الناس الغلابة لفترة من الزمن ثم يحولونها بقدرة قادر إلى بيوت أسمنتية.

هذه الطرق مزدحمة طوال اليوم والليل أيضًا بالسيارات والباعة الذين يعرضون سلعهم الرخيصة سواء فى المحلات أو على الأرض مباشرة وفى عرض الطريق ، لأنه من المضحك أن نقول إنهم يفترشون الأرصفة.

على مقربة من سيارة الطبيب الألمانية الفارهة تصف سيارة يابانية قديمة الطراز ومتهالكة قليلًا ، ينزل منها رجل عادى الشكل والملامح وبصحبته طفل فى العاشرة أو دونها بقليل ، هاجمهما دخان رمادى كثيف نتن الرائحة ، ينبعث من أكشاك قريبة تشكل ورشة لتصنيع أسماك الرنجة ، أصحاب هذه الأكشاك يجلبون نوعًا من السمك يشبه الرنجة ثم يطلى بطبقة من الجمالكا التى يطلى بها خشب الموبيليا ، فيكتسب لونًا ذهبيًا براقًا وخادعًا ، يعلق بعدها على حبال تمامًا كما يفعلون فى أوروبا ، ثم يوقد تحته بالنشارة وخشب الصناديق وأقفاص الفاكهة القديمة المتكسرة ، ويبقى لعدة ساعات حتى ينضج لحمه الطرى ويتشبع بالدخان ، الذى ينتشر عبر شقوق السقف ليملأ الجو بكثافة صانعًا سحابة خانقة ومشبعة بزفارة تكتم الأنفاس ، بعدها يُجمع السمك ليوضع فى صناديق من الخشب الأبيض النظيف المكتوب عليها كلمات بحروف لغة أوروبية ، ليصبح سمك الرنجة المحلى الصنع الذى نأكله جميعًا فى المناسبات والأعياد !

الرجل يضع كفه على أنفه برغم اعتياده على زيارة المكان ، يفعل ذلك بحركة أصبحت تلقائية كلما حضر إلى هنا وتلقى صدمة الشمة الأولى لرائحة السمك الزفرة ، أما روائح الزبالة والمجارى فلا تضايقه كثيرًا ، نظر الطفل متطلعًا لما حوله باستغراب وهو يستكشف هذا

المكان الجديد بفضول وحب استطلاع يمتلك منه الكثير ، ربما أكثر مما ينبغى ، ثم قال للرجل بصوت يغالب النعاس بعناد:

– أين مدينة الملاهى يا عمو ؟

قال الرجل وهو يربت على كتفه ويبتسم مطمئنًا:

– سنمر على صديق لى يعمل هنا ، ثم نذهب للملاهى وستلعب جميع الألعاب حتى تزهق وتقول أنا عايز أروح ، مبسوط يا عم ؟

رد الطفل وعيناه تتسعان بالفرحة والامتنان للرجل الذى سيحقق له أمنية طالما حلم بها:

– مبسوط جدًا ، هى الملاهى بتاعتك كبيرة ؟

– أكبر ملاهى فى البلد كلها ، إنت أكلت الشيكولاتة ؟

– من زمان ، أكلتها كلها.

– طيب شاطر.

الساعة تقترب من الحادية عشرة وحركة الحياة فى ذروتها ، صياح وزعيق ، سماعات المحلات تعمل بأقصى قوتها ، تملأ الفضاء بالغناء شعبى والشبابى والخطب الدينية والتواشيح لتختلط كلها فى نسيج واحد ، سيارات النقل الخفيف والميكروباصات وعربات الكارو بحميرها وبغالها تخترق الطريق من الاتجاهين معًا وفى نفس الوقت ، يتبادل سائقوها وعربجيتها السلام والضحكات أو السباب والشتائم وهم يمرون دون تصادم من بعضهم البعض فى تناسق عجيب ومهارة لا يحسدون عليها.

الرجل يمسك شنطة كبيرة نوعًا وباليد الأخرى يسحب الطفل من يده برفق وهو يمضى مخترقًا الزحام البشرى الكثيف ، جموع من الرجال والنساء والأطفال تسرح كالنمل أو الجراد ، يتصادمون ويحتكون ببعضهم فى خشونة كأنهم جميعًا على استعداد للشجار.

obeikandl.com

بعد دخولهما أحد هذه الممرات التى بين العمارات والتى يصعب أن ترقى لمرتبة الحارة المعروفة فى أحياء المدينة القديمة ، علا صراخ فجائى من إحدى الشقق طغى على صوت الضجيج ، صراخ نسائى حاد ، جمع الناس على الفور حتى سدوا مدخل العمارة فى ثوان ، انفتحت نافذة بعنف فى الدور الثانى ، لا توجد شرفات على الإطلاق فى هذه العمارات ، قفز حمودة من النافذة بقميص مفتوح الأزرار وهو يمسك بنطلونه بيده ، وشرع فى الجرى عرجًا بأقصى قوته ، أطلت مرفت من النافذة بقميص نومها الممزق عند الصدر ، وهى تواصل الصراخ وشتم حمودة جارها فى نفس الدور بأقذع الشتائم.

– عيل نجس وقليل الأصل ..

– ولد ابن حرام ، أنا عارف أبوه ، طول عمره واطى.

انفض الناس تدريجيًا راجعين إلى أشغالهم وهم يسبون حمودة ويلومون مرفت التى لا تعرف الحياء ، وتترك شباك نافذتها التى يفصلها عن نافذة جيرانها مترًا واحدًا مفتوحًا طوال النهار ، حتى وهى تغير ملابسها ، الواد اتجنن ، معذور برضه ، فى بنت محترمة تعمل كده ؟!

واصل الرجل السير بعد أن توقف لعدة دقائق ، ليس فقط بسبب هذه المعمعة وإنما بسبب توجسه الداخلى وحذره من حدوث شىء ما ، يعكر إتمام مهمته المربحة والرائجة فى هذه الأيام التى سادت فيها الفوضى وعم الزحام الذى يجد فيه غنائمه.

انحنى وهو يدلف من مدخل العمارة الضيق الذى بالكاد يسمح بمرور شخص بمفرده ، مد يده بالحقيبة أولًا ثم عبر هو ثانيًا والطفل مسحوبًا باليد الأخرى ثالثًا ، استمر هذا الوضع وهم يصعدون السلم الضيق أيضًا ، قبل أن يصلوا إلى الدور الأول كانت أصوات الشجار الدائر فى الشقة الثانية المفتوحة الباب ، تجلجل فى السلم

، الأم تشتم ابنتها وزوجها وأولادهما الذين يعيشون معها وتمسح بكرامتهم البلاط والبنت تدافع عن نفسها بالسباب والصراخ بسبب عشرة جنيهات ، ابتسم ساخرًا وهو يلعنهم فى سره و يمضى صاعدًا إلى الطبيب الذى ينتظره فى غرفة العمليات بالعيادة.

obeikandl.com

النافـذة مغلقـة

obeikandl.com

النافذة المغلقة أمامه ، ينظر لها بغيظ ، ليست وحدها المغلقة ، بل جميع نوافذ العربة ، فتحة التهوية فوق رأسه كأنها ديكور ، لا يعرف إن كانت تعمل ويضيع أثرها فى الزحام ، أم أنها معطلة !

يمسك الحلقة المدلاة من السقف بيد وبالأخرى يقبض على كتاب ، كان يعتقد أنه سيبدأ فى قراءته بمجرد أن يركب المترو خلال المشوار الطويل الذى يستغرق أربعين دقيقة ، لكنه لم يجد مقعدًا خاليًا برغم تأخر الوقت وبرد الشتاء الذى كان عادة يحبس الناس فى بيوتهم ، وقف قرب المقاعد المشغولة عسى أن يقتنص مقعدًا إذا حدثت المعجزة وقام أحد الجالسين من المتشبثين بمقاعدهم حتى النهاية.

فى البداية رضى بالوقوف على مضض والأمل يحدوه فى احتلال مقعد بعد زمن قد يطول أو يقصر ، لكن مع الدفعات البشرية التى كانت أبواب العربة تقذف بها فى كل محطة بلا رحمة ، أصبح مجرد الوقوف بشكل محترم أمرًا عسير المنال ، لم يعد الحيز المتاح لجسده يسمح بانتصاب قامته كما يليق بالإنسان الطبيعى ، ضغط من الجهات الأربع الأصلية والفرعية ، يضطر معها إلى ثنى إحدى ركبتيه بحيث أن مشط القدم بالكاد يلامس الأرض التى ضاقت حتى لم يعد هناك مساحة تكفى إلا لقدم واحدة ، كان يستطيع أن يدرك سبب انضغاط جسده من القدمين إلى الكتفين ، أما غير المفهوم فهو هذا الضغط الذى يشعر به من أعلى أيضًا ، كأن هناك صفوفًا بشرية علوية تقف على أكتاف الركاب ورؤوسهم.

لم تُفتح نافذة واحدة ، برغم العرق الذى بدأ ينضح تحت الآباط ويجرى خيوطًا رفيعة على الظهور ، أما العطانة المنبعثة من الملابس الصوفية الثقيلة فكانت بالفعل أمرًا لا يطاق.

تلفت إلى وجوه الناس حوله ، علـه يجد واحدًا يشاركه الإحساس باختناق الجو والضيق من الصهد وثقل الهواء المشبع ببخار الماء ، فلم يجد ، بدا أن الجميع فى حالة من الاستسلام لهذا الوضع المزرى ، لم يشعر أن أيًا من الجالسين أو الواقفين يعطى هذا الانطباع بالتململ الذى يعانيه ، الأمر لا يشغلهم من الأصل ، كأنهم يتواطئون جميعهم ضده.

شلل الشبان الصغار وهم يتحدثون ويتصايحون بألفاظهم السوقية ، الفتيات اللاتى يتلطعن قرب ذويهن أو يقفن بمفردهن ، تلتصق على رؤوسهن إيشاربات تغطى بعض شعورهن بينما البناطيل الضيقة تخنق أردافهن ! الرجال الأكبر سنًا صامتون ينظرون إلى لا شىء ، كل منهم يغوص داخل نفسه يبحث فى بحار الهم عن حل لمشكلة ما لا تعنى أحدًا سواه ، والبعض يطوى الصحيفة ويستغرق فى قراءتها وهو يسندها على قفا أو كتف جاره.

النسوة البدينات اللاتى يكفى أن تصطبح بوجه الواحدة منهن حتى يصيبك الغم بقية يومك ، معظمهن يحملن أطفالًا رُضع يهدهدنهم ولا يتوقفن فى نفس الوقت عن زجر وتهديد صغارهن الأكبر سنًا ، الذين لا يكفون عن الشجار ومناكفة بعضهم البعض بسماجة لا تتفق أبدًا مع براءة الطفولة ، بينما الزوج سواء كان جالسًا أو واقفًا لا يفعل سوى أن ينظر إلى زوجته وعلى وجهه تلك النظرة الخالدة التى تحمل الندم العميق والغيظ المكتوم ، وهو يزفر كل فترة كأنه على وشك الاختناق.

هذه المرأة البدينة المتجهمة التى تجلس أمامه تضم رضيعها وخلفها تمامًا الشباك ، ستصرخ بكل تأكيد فى وجهه رافضة فتح الشباك خوفًا على رضيعها من الهواء البارد ، كان المترو قد خرج من النفق وأصبح توقفه فى المحطات الفرصة الوحيدة لتجدد الهواء عندما تُفتح أبواب العربة الثلاثة ، لكن هذه اللحظات لا تكفى لتبديد صهد الأجساد

ولا لإزاحة الهواء الفاسد الجاثم على الصدور.

فى لحظة وبعد تردد دام ثمانى محطات على الأقل ، قرر أن يبادر بالمغامرة ويتحدى الجميع وليكن ما يكون ، إن كانوا تعودوا الأماكن الضيقة المغلقة ولم يعد تنفس الهواء الراكد يثير أدنى شعور بالضيق لديهم ، فسيجبرهم على استنشاق الهواء النظيف رغمًا عن إرادتهم ، فلم يعد يطيق ..

مال بجسده وأطبق بكلتا يديه ، التى تحمل الكتاب والأخرى الحرة ، على مقبض الشباك الزجاجى ، ودفعه بكل قوته إلى أعلى ، دفعة واحدة تعمد أن يُحملها كل ما فى نفسه من غيظ كأنه يعلن تحديه لأى معترض ، تدفق الهواء باردًا منعشًا ، قبل أن يعتدل ، صاح رجل من الجالسين قرب النافذة وهو يلتفت مأخوذًا:

– ياااه .. خرجت من صدره طويلة تحمل فرحة المفاجأة ، قبل أن يكمل منتشيًا وهو يتنفس الصعداء، كمن يلقى عن كاهله حملًا ثقيلًا:

– ده إحنا كنا فى كتمه ومش حاسين.

مرت همهمة التجاوب بين الجميع وعلامات الارتياح تظهر على وجوههم ، حتى السيدة التى تحمل رضيعها وتجلس قرب الشباك نظرت إليه بامتنان وعلى وجهها ابتسامة طيبة كأنها تشكره ، وعدوى فتح النوافذ تنتقل بين ركاب العربة بحماس ، كأنهم اكتشفوا الآن فقط أن بالعربة نوافذ يمكن فتحها:

هــزالذيــل

obeikandl.com

خلع قبعته وهو يدخل المكتب فتصبب العرق على جبهته ، أتى من تحت شمس الظهيرة الحارقة إلى مكتب الإدارة ، بناء خشبى سابق التجهيز " كارفان " ، مجرد غرفتين يصل بينهما ممر ، غرفة للمهندسين بها عدة مكاتب وعدد من الكراسى ، وبجانبها فى نهاية الممر غرفة أخرى للإداريين.

وجد مدير الموقع جالسًا يعمل على جهاز الكومبيوتر ، ألقى عليه التحية وجلس على أحد الكراسى ، أشعل سيجارة وطلب من العامل أن يأتيه بكوب ماء ويصنع له شايًا.

رفع المدير رأسه وسأله عن سير العمل ، قبل أن يجيب دوى رنين الهاتف ، انتبه المدير وهو يرد ثم اعتدل فى جلسته حتى كاد يقف ، أدرك أن صاحب الشركة ورئيس مجلس إدارتها هو المتحدث على الطرف الآخر.

سرى داخله تيار من التوتر ، لوجود الرجل الكبير معهم حتى ولو كان على الهاتف ، واستغرب أنه يتصل بنفسه ليتحدث مع مدير الموقع ، فعادة ما يتم الاتصال بينهم وبين الإدارة فى القاهرة مع مهندسى المشروعات والإنتاج لمتابعة العمل ، ولم يحدث أن تكلم رئيس مجلس الإدارة طوال الستة أشهر التى قضاها فى هذا الموقع !

تذكر مقابلته الوحيدة معه ، فى مكتبه الفخم عند بدء عمله فى الشركة ، لم يشعر ساعتها بالارتباك ، وأجاب بثقة عن أسئلته المدققة ، والرجل برغم ثرائه العريض وشهرته ونفوذه أيضًا ، تعامل معه ببساطة وتواضع ، لكن الذى أدهشه هو روح الدعابة التى يتمتع بها برغم أنها تصدر عن ثقة مفرطة بالنفس ، كما يليق بالكبار أمثاله ، لكنه لم يتصور على أية حال أن يجد الرجل بشوشًا بهذا الشكل الذى

قابلـه بـه.

أخـذ صـوت المديـر يعلـو مـن فـرط انفعالـه ، تتطايـر عبـارات الثنـاء مـن بـين شـفتيه وهـو يتكلـم عـن العمـل فى الموقـع ويـشرح مـا تـم مـن المـشروع وخطـوات سـير العمـل القادمـة ، بنـبرة يتزايـد فيهـا التملـق وترتفـع نبرتـه مـع الاسترسـال فى الحـوار.

شـعر بالاسـتياء لمـا يبديـه المديـر مـن احـترام لـزج مبالـغ فيـه ، دون أن يكـون هنـاك مـا يدعـوه إلى ذلـك ، فالمكالمـة بـدت روتينيـة ، لمجـرد المتابعـة والاطمئنـان وربـما التشـجيع لمديـر الموقـع فى هـذه الصحـراء القاحلـة التـى يعملـون بهـا ، لكـن فرحـة المديـر بـدت هسـتيرية بهـذه المكالمـة غـير المتوقعـة مـن رئيـس مجلـس الإدارة.

وضـع عامـل البوفيـه الشـاى وانـصرف ، بينـما المديـر ينصـت باهتـمام والسـماعة تـكاد تغـوص فى أذنـه ، أخـذ يرشـف الشـاى بهـدوء وقـد انـزاح توتـره ، فالأمـر لا يعنيـه مـن الناحيـة الشـخصية ، لا بـد أن رئيـس مجلـس الإدارة لا يتذكـره ولا يهتـم بأمـره ، لديـه آلاف الموظفـين والعـمال ، هنـاك أربعـة عـشر مهندسًـا بالإضافـة إلى المديـر يتناوبـون العمـل والإقامـة فى الموقـع ، هـو أحدثهـم وأصغرهـم عمـرًا.

أمـضى أسـبوعين فى الموقـع ، وبقـى لـه أسـبوع آخـر حتـى موعـد إجازتـه ، عليـه أن يقضيـه فى العمـل الشـاق نهـارًا والهـدوء الممـل ليـلًا ، ليـس لديهم جهـاز تليفزيـون ، فالإرسـال لا يصـل إلى هـذا المـكان البعيـد ، الراديـو الصغـير لا يلتقـط إلا بعـض المحطـات البعيـدة دائمـة الـوش ، يتشـوق إلى خطيبتـه وإلى شـوارع مدينتـه المزدحمـة وليلهـا الصاخـب ، يتحمـل العمـل راضيًـا مـن أجـل المرتـب الكبـير ، الـذى لم يكـن يحصـل إلا عـلى أقـل مـن نصفـه وهـو يعمـل فى شركـة أخـرى بمدينتـه.

نظـر إلى الصحـراء المتراميـة مـن نافـذة المكتـب ، لمـح العـمال وهـم يرجعـون لراحـة الغـداء القصـيرة ، بعضهـم اتجـه إلى حـوض المـاء المجـاور

للمصلى ، يقفون فى ما يشبه الطابور أمام الصنبور استعدادًا للوضوء ، تصله أصواتهم العالية وضحكاتهم ، أغلبهم متعلمون ، وهناك عدد منهم حاصلون على مؤهلات جامعية ، جاءوا من أقاليم الدلتا والصعيد سعيًا خلف العمل فى هذه الصحراء ، أيًا كان نوع العمل أو صعوبته فهو أفضل من انتظار وظيفة ملائمة قد لا تجىء.

– نعم ، نعم موجود يا فندم.

قالها المدير وهو ينظر إليه ، أفاق من شروده ، نظر متسائلًا ، لكن المدير استمر هادرًا بصوته المنفعل وهو لا يكاد يملك أعصابه ، وبدا من عروق رقبته النافرة وجحوظ عينيه مدى ما يعانيه من انفعال هو خليط من الفرحة والارتباك.

يبدو أن الرئيس تذكره أثناء حديثه وسأل عنه ، وهو أقصى ما يمكن أن يناله من اهتمام.

نظر إلى المدير بابتسامة ساخرة ، هذا الرجل الصارم ، القاسى فى معاملته للعمال ، لم يتوقع أن يراه خاضعًا ، متزلفًا ، بل منافقًا إلى هذا الحد المُخزى ، انتابه شعور بالازدراء تجاهه ، فخفض عينيه إلى الأرض خجلًا من الرجل الذى سقط من نظره ، ومط شفتيه احتقارًا لسلوكه المهين ، فهو ليس بحاجة إلى أن يهز ذيله لمجرد أن رئيس الشركة تحدث إليه هاتفيًا ، فهو بالفعل كفء فى عمله ، يدير الموقع باقتدار يجعله فى غنى عن هذا السلوك المشين.

– اتفضل يا باشمهندس..

انتبه لصوت المدير ، فرفع بصره إليه مأخوذًا ، ليجد يده تمتد بسماعة الهاتف ، وفى عينيه نظرة مشجعة ، ليس هناك مجال للشك ، رئيس الشركة.. شخصيًا ، على الطرف الآخر ، قال المدير بصوته الهادئ المعتاد ، وقد استعاد رابطة جأشه تمامًا كمن اجتاز امتحانًا صعبًا:

– سعادة الباشا ، يريد أن يحدثك :

قام من فوره ، وقد أدهشه.. بل أفزعه هذا الارتباك الذى أصابه ، حتى أخذت أنفاسه تتلاحق ، وهو يحاول السيطرة على رعشة أصابت يده التى أمسكت بالسماعة ، لكنه ما إن سمع صوت الرجل الكبير يحييه ، حتى ذهبت كل محاولاته للسيطرة على أعصابه سدى ، ولم يفلح فى التحكم بنبرات صوته الذى خرج عاليًا.. مهتزًا رغمًا عنه.

كأنما أدرك فجأة وفى هذه اللحظة فقط ، مدى أهمية أن يحدثه الرجل ، الذى بدا كريمًا جدًا لسؤاله عنهم واهتمامه بأمرهم دون أن يكون مضطرًا لذلك ، وهم مجرد موظفين يعملون فى إحدى شركاته الكثيرة .. وفى هذا المكان النائى ، جرفه الانفعال عندما وجد الرجل الكبير يتذكر اسمه ويخاطبه بلهجته الودودة ، ويسأله عن أحواله وعن الموقع وإذا كان هو وزملاؤه راضين عن خدمات الإعاشة والإقامة ، فأخذ يؤكد أنه بخير وأن العمل يسير على أكمل وجه ، ليجد نفسه يعيد ما سبق أن قاله المدير وبنفس الأسلوب تقريبًا ، انهارت كل حصونه فى السيطرة على نفسه وعلى مشاعره المتدفقة بالثناء والشكر للرجل الكبير ، الذى يملك الشركة ومواقعها ومعداتها والأموال التى يدفع منها أجورهم ، وكأنما اكتشف فجأة فى غمرة انشغاله بالحديث معه أن احترامه ليس نفاقًا ، بل شرًا لا بد منه !

بعد انتهاء المكالمة خرج مع المدير لتناول الغداء فى مطعم الموقع ، وهو يشعر فى قرارة نفسه أنه أخفق فى اختبار ، طالما هاجم وسخر ولم يحترم الذين أخفقوا فيه من قبل.

obeikandl.com

الكابوس الآتى

obeikandl.com

كنت أفتش فى الأدراج بشكل مسعور ، بحثًا عن مسدس أبى ، لم أجده فى الأماكن المعتادة التى طالما صادفنى فيها بسواده الكالح فى أوقات لم أكن بحاجة له فيها ، لم أعتقد أبدًا أنه ستأتى علىَّ لحظة كهذه ، أريده بجنون ولكن بمنتهى المشروعية أيضًا ، ليس الانتقام فقط هو ما يدفعنى ولا الدفاع عن النفس فهم لم يؤذونى إلا بالكلام ، ولكن التصدى لهم والتخلص من شرهم أصبح فى نظرى واجبًا.

ما زلت أبحث ، أجرى من غرفة لأخرى فى بيتنا الفسيح ، أقلب مراتب الأسرة وأمد يدى تحت المخدات ، اعتاد أبى أن يضع المسدس تحت المخدة حيث ينام ، من عاداته الغريبة أنه لم يكن ينام فى سرير واحد ، بل يتنقل كل ليلة بين الغرف ، بحيث لا يعرف أحد أين يبيت ليلته !

كثيرًا ما كان يخرج بعد منتصف الليل إلى حديقة البيت والمسدس مشرع فى يده ، ثم يضرب عيارين فى الهواء ، وما تلبث الابتسامة الساخرة أن تعلو وجهه الصارم وهو يسمع خشخشة الحشائش وهى تتكسر تحت أقدام لصوص الليل ، وهم يفرون وكلابنا البلدى البلهاء تنبح فى أثرهم ، ثم يدخل البيت مطمئنًا لهيبته وينام.

كانوا يأتون ملثمين مستترين بالظلام يحومون بحذر قبل أن ينقضوا ليحملوا بسرعة ما يقدرون على سرقته ، لكنهم لم يسرقوا أبدًا من عندنا ، بطريقة ما وبصورة غامضة لم أفهمها فى أى يوم ، كان أبى يعرفهم ، ويبعث لهم فى اليوم التالى لزيارتهم ببعض الأشياء وربما النقود أيضًا ، وهو الأمر الذى كان يجعلنى أغضب وأعترض عليه بشدة صائحًا ، إنهم كلاب أولاد كلاب ولا يستحقون إلا السجن ، فينظر إلىَّ ويبتسم دون أن يعلق.

ربما لأنه هو أيضًا كان يتجبر على الفلاحين وينهبهم بوسائله التى لا تعد ويأكل عرقهم ، مما دفع ببعضهم ممن يتصف بالطيش أو التهور إلى مواجهتى وإبلاغى بشكواهم منه ومن ظلمه لهم ، لكنهم كانوا يفعلون ذلك بكل ما يملكون من مكر و قدرة على المناورة لتخفيف وقع كلامهم بالعبارات الناعمة ، حتى ليبدو أبى فى صورة ملاك منزه عن الخطايا لكنه فقط يقبض على رقابهم ويتحكم فى أرزاقهم ويبطش بقويهم وضعيفهم على حد سواء.

لا أحب المسدسات والأسلحة النارية عمومًا ، أفضل استخدام القانون فى الردع وفض المنازعات ومعاقبة اللصوص ، لكن أبى مع ذلك أجبرنى على تعلم استخدام المسدس ، وكيفية فكه وتنظيف أجزائه بالزيت وإعادة تركيبه وتعبئته ، اعتبرت أن علم المسدسات هذا علم لا ينفع ، لا ينفعنى أنا على الأقل ، لكننى أبحث عنه الآن ، أريده بأى ثمن ، الرصاص فقط يستطيع أن ينهى هذه المسألة المستعصية ، رصاصة واحدة فى جسد زعيمهم ، يفرون بعدها كالخراف المذعورة.

مجموعة من الصبية والشبان الصغار ، يجوبون الطرق ليلًا مسلحين بالمدى والسكاكين والعصى الغليظة ، يسرقون بالإكراه ، روعوا البلدة بأسرها ، لا يعرف أحد من أين جاءوا ، على حداثة سنهم لا يتوقفون عند حد ، فى البداية لم أهتم بأمرهم واعتبرتهم ظاهرة شاذة سرعان ما تنتهى ، حتى تلك الليلة التى هاجمونى فيها.

لا أحب أن أدعى الشجاعة ، لكننى بالفعل لم أشعر بأى فزع وأنا أسمع صوت حركتهم من بين الأشجار وتكسر الأوراق اليابسة تحت أقدامهم وهم يتجهون نحوى ، ثم ظهورهم من جانبى الطريق المترب الضيق الذى يخترق مزرعة أبى الشاسعة.

كنت راجعًا من جولتى اليومية التى اعتدت على القيام بها خلال زيارتى للمزرعة والتى تستغرق عدة أيام ، لم يكن الظلام قد خيم

بعد مما أتاح لى أن أرى وجوههم وهم يتكتلون أمامى ، عددهم يقترب من العشرين ، تفرست فيهم وأنا أتقدم ماشيًا فلم أعرف منهم واحدًا ، اضطروا للتقهقر عدة خطوات وهم يرمقونى بوقاحة وعلى شفاههم ابتسامة مستهزئة ، توقفت فى النهاية ومن يبدو أنه زعيمهم يواجهنى على بعد خطوة واحدة.

على الرغم من ضخامة جسمه الفتى كانت تبدو على وجهه علامات سوء التغذية ، أما عيناه فكانتا تعكسان بوضوح إدمانه للمخدرات ، كنت اسمع أنفاسه اللاهثة وأنا أنظر إلى ملابسه الرثة التى يرتديها كيفما أتفق ..

بمفردى ، ليس معى أحد من عمال المزرعة ، كلابى الولف الثلاثة المدربة ترقد هناك فى حديقة البيت بعيدًا ، على استعداد للفتك بأى إنسان يجرؤ على تجاوز باب السور المحيط بالحديقة ، لكنها ليست بجوارى الآن ، أعتقد أن ظل ابتسامة لاح على وجهى وأنا أتخيل هؤلاء الصبية ولحم أجسادهم يتمزق بأنياب الكلاب ومخالبهم.

بادرته بالكلام حتى أمتلك زمام الموقف ، فسألته بمنتهى العادية وبلهجة مترفعة كأننى لا أعرف من هم:

- هل تبحثون عن عمل ؟

أرتج عليه بعض الشىء وبدا للحظات عاجزًا عن اختيار كيفية بدء الهجوم ، ارتفعت أصوات الفتية من خلفه مزمجرة بالسباب تعترض وتتعجل ، أدركت على الفور أنهم اعترضوا طريقى مصادفة دون نية مسبقة كما تصورت.

بحركة سريعة سحب مديته من داخل ملابسه ولوح بسلاحها فى الهواء وهو يبسط كف يسراه صائحا:

- محفظتك ..

آذتنى رائحته عندما تقدم بجسده منى فتراجعت خطوة مشيحًا بوجهى ، لأرفع أنفى بعيدًا عن الرائحة النتنة التى تفوح بخليط من الروث والعرق الزنخ والصدأ المعدنى ، ثم أجبته باستهانة وقد قررت أن أخرج من هذه المواجهة محتفظًا بكرامتى مهما كان الثمن.

- المحفظة ليست معى ، ولا أحمل أى نقود.

هذه المرة كان رده جاهزًا وسريعًا ، صاح وهو يشير بمطواته إلى معصمى.

- طيب أقلع الساعة.

لم أبد أى رد فعل ، أجبته بالصمت وأنا أنظر إلى عينيه وقد بدأت أصوات عمال المزرعة وحركتهم السريعة ، وهم يركضون باتجاهنا من الزراعات تصل إلينا.

- لأ !!

أجبته أخيرًا وبصوت عالٍ ، فتلوى فى وقفته زهقًا كأننى حرمته حقًا من حقوقه أو رفضت له طلبًا مشروعًا ، ثم شوح بالمطواة فى اتجاهى بغتة متعمدًا إصابتى ، لكن دون أن يتحرك نحوى مهاجمًا ، فقط مال بجذعه وقدماه ثابتتان على الأرض فى حركة يائسة أكثر منها مهاجمة ، تراجعت بقفزة إلى الوراء فمرق النصل ولم يمسسنى ، لكن سيل الشتائم التى قذفنى بها قبل أن يولى هاربًا هو ورفاقه أوجعنى.

طال بحثى عن المسدس بلا جدوى ، برغم بُعد المسافة كان زعيق الرجال وصياحهم يخترق سكون الليل الدامس ، ويصلنى من المخزن بوضوح مصحوبًا بصرخات النساء ، أبلغنى أحد العمال أنهم هاجموا مخزن المعدات وأن الرجال استطاعوا محاصرتهم داخله ، أردت أن أحمل المسدس لأجعل من سرقتهم عبرة لا تتكرر ثانية ، لكننى اضطررت فى النهاية أن أخرج بدونه ، لابد لى من الوجود مع رجالى ، اتصلت بالشرطة وأبلغتهم ثم أسرعت إلى المخزن ، لأفاجأ بعد خروجى من

البيت بالنيران تلون سواد الليل.

برغم ما شعرت به من فزع فإننى مشيت بهدوء إلى المخزن ، بخطوات سريعة نعم لكنها قوية وراسخة لا تحمل أى قلق أو توجس ، كان لابد أن أصل كمنتصر ، وجدت عددًا كبيرًا من الأهالى وعمال المزارع القريبة قد تجمعوا بفؤوسهم ومعاولهم.

لمحت ثلاث جثث على الأقل وسط الفوضى التى عمت ساحة المخزن ، وبدا المشهد كأن المكان تحول إلى ساحة معركة ! ألقيت نظرة عن قرب والناس يفسحون لى على الجثث ، كنت ساعتها مهتمًا بشكل خاص بزعيمهم ، تقدمت وأنا أتساءل إن كان قد قُتل أم أنه مازال فى الداخل مع المحاصرين ؟

سرعان ما تبينت جسده الضخم ممددًا على الأرض ، لم أتصور يومًا أننى سأشعر بمثل هذا الارتياح لقتل إنسان ورؤية جثته ، لم أجد فى نفسى ذرة شفقة وأنا أنظر إليه وهو مرمى مثخن بالجراح ومقطع الجسد.

لم يستغرق الأمر سوى ربع ساعة قبل أن يتمكن عمال المزرعة بمساعدة الأهالى من إخراج بقية الصبية من مكمنهم ، قيدوهم بالحبال بعد أن أشبعوهم ضربًا ، وظلوا من حولى يحكون فى نفس واحد عن الانتصار الذى حققوه ، وهم يشيرون بازدراء إلى أفراد العصابة وقد تكومت أجسادهم فى جلسة القرفصاء الذليلة بجوار الجدار.

عاقبت وبشدة الرجال الذين عينتهم للحراسة ، فقد كنت على يقين أن هذه العصابة سترجع للانتقام بعد أن قبضنا على اثنين منهم يوم أن هاجمونى ، لكن العمال يبدو أنهم كانوا واثقين أنهم لن يجرؤوا على الاقتراب من حدود أرضنا ، لمجرد أنهم اشبعوا الولدين ضربًا قبل أن نسلمهما للشرطة التى قامت معهما بالواجب ، فتراخوا

فى الحراسة حتى كبدونى خسائر فادحة بسبب الحريق ، الذى نفذته هذه المجموعة من الصبية باقتدار فاجر ، ولولا رعونتهم واستهتارهم بالجميع خاصة وأنها كانت ليلة رى ، أحد الليالى التى يسهر فيها الفلاحون لرى زراعاتهم مما جعل الأهالى يهرعون من حقولهم القريبة للمساعدة ، لتمكن أفراد هذه العصابة من الفرار.

خرجت من هذه الأزمة والجميع بمن فيهم رجال الشرطة ، يرجعون إلىَّ الفضل فى القضاء على هذه العصابة والتخلص من شرهم نهائيًا ، بعد أن روعوا المنطقة بأسرها لعدة أشهر ، ويشيدون بشجاعتى فى مواجهتهم ، لكننى مع هذا ظللت أشعر أنى لم أشف غليلى ..

عندما أزور المزرعة الآن لا أمشى إلا ومسدسى الجديد معلق فى الحزام ظاهرًا للعيان ، ولا أستطيع النوم إلا بعد أن أطلق عدة أعيرة فى الهواء.

استوردت من أوروبا كلاب حراسة فى ضخامة النمور وشراستها ، يتبعنى واحد منهم أو أثنان عندما أتجول فى المزرعة أو خارجها عند مزارع الجيران أو فى القرى المحيطة ، مما يتسبب فى حدوث حالة من الرعب عند الكبار.

أما الأطفال فإنهم يفرحون ويتجمعون بأعدادهم اللانهائية فى عصابات صغيرة تحاصر الكلاب التى تستكين بطبيعتها لهم ، ويداعبونها بقسوة طفولية فيشدون آذانها وذيولها ضاحكين وهم يدبدبون على الأرض ويجرون من حولنا متهللين ، ولا يكفون عن إبداء استغرابهم ببراءة من حجم الكلاب بل ويحكون عن شراستها لبعضهم فى ثرثرة تختلط بصياحهم وصخبهم ، وأنا برغم سعادتى بهم أجد شيئًا من التوجس ، أعد نفسى لمواجهة أخرى لا بد أن تأتى فى زمن ما !

obeikandl.com

مجرد هواء

obeikandl.com

– ياااه الجو هنا برد جدًا !

قالت الدكتورة منى بمجرد دخولها المعمل بملابسها الصيفية الخفيفة ، وعلى الرغم من حر شهر يونيو ، وضعت زراعيها حول صدرها كأنها تدفئ نفسها وهى تتجه بسرعة نحو جهاز التكييف ، ضغطت على زر الإطفاء بقوة ، ثم سارت إلى مكتبها وجلست تكمل عملها ! منى ليست دكتورة بعد ، لكنها طالبة دكتوراه وتعمل كباحث مساعد فى هيئة الأبحاث العلمية.

لم يعترض أحد من زملائها الذين كانوا منهمكين فى عملهم باستغراق ، تعودوا جميعهم على تشغيل التكييف وإغلاقه كما يحلو لهم ! معملهم هو المعمل الوحيد فى الهيئة الذى به جهاز تكييف وهو الأمر الذى كان يثير حسد زملائهم فى الأقسام الأخرى ..

بعد قليل جاء الدكتور الشاب أشرف بقامته الفارعة وجسده الممتلئ وهو يتصبب عرقًا ، صاح بمجرد أن دخل المعمل.

– كيف تتحملون هذا الحر يا جماعة ؟ الجو لا يُطاق.

اتجه من فوره إلى جهاز التكييف وضغط زر التشغيل ، تلقى دفعة الهواء البارد على صدره وتنهد بارتياح.

– يا سلام التكييف ده نعمة !

حتى وقت قريب كان معمل القسم بلا تكييف مثل بقية المعامل ، وكانت جميع الأجهزة الموجودة به قديمة ! أيضًا مثل المعامل الأخرى ، لكن بعد وصول الدكتورة مرفت لرئاسة القسم بدأت أمور كثيرة فى التغير ، بسبب نشاطها وكفائتها العلمية والإدارية وكذلك اتصالاتها

بقيادات الوزارة ، استطاعت وبمجهود فردى أن تطور القسم ووتنتقل به عدة خطوات للأمام.

مكتبة جديدة خاصة بالقسم منفصلة عن المكتبة الرئيسية للهيئة ، جلبت لها أحدث الكتب والمراجع العالمية فى مجال التخصص ، واشتركت فى الدوريات والمجلات العلمية التى تنشر الأبحاث الجديدة حتى يتابع الباحثون فى القسم ما يجرى فى العالم المتقدم ، قبل إنشاء هذه المكتبة كان أحدث مرجع متاح يعود لخمس أو ست سنوات مضت.

بشجاعة أصدرت قرارًا بالتخلص من الأجهزة الموجودة فى المعمل والتى يرجع عمرها إلى أكثر من ثلاثين سنة ، وحولتها إلى مخزن الخردة – تعرضت للتحقيق بسبب هذا القرار- واشترت على مسئوليتها أجهزة حديثة لتدفع بالعمل البحثى فى القسم وتشجع باحثيه على الإنتاج.

لديها رغبة وعزيمة أن تجعل قسمها الأول وفى مركز الصدارة ، ليس فقط على مستوى الهيئة ولكن على مستوى الوزارة كلها ، فى المرات التى زارت فيها معامل الأبحاث فى الدول المتقدمة انبهرت بما رأته من نظام وتطور ، وتمنت ساعتها أن تكون معامل الهيئة على هذا المستوى الراقى ، لكن لم يكن بإمكانها فعل شىء لتحقيق هذه الأمنية قبل وصولها لرئاسة القسم.

منذ التحاقها بالعمل فى الهيئة .. لا بل منذ أن كانت طالبة فى الكلية وهى تمتلك طموحًا كبيرًا فى الوصول لأعلى المناصب ، رئاسة القسم ليست سوى الخطوة الأولى على طريق طويل تسعى لأن ينتهى ليس عند المراكز القيادية الكبرى فقط بل لكرسى الوزارة.

ضغطها المستمر على الباحثين فى القسم وحثهم على العمل والإنتاج ، بداية من المعيدين حديثى التخرج طلبة الماجستير ونهاية بالحاصلين

على درجة أستاذ دكتور ، جعلت الجميع يستاؤون منها ومن طموحها.

زملاؤهم فى باقى أقسام الهيئة يعملون بهوادة وبإيقاع بطىء ، لا أحد يسألهم أو يحاسبهم ولا أحد يهتم سواء اشتغلوا أم لا ، كل إنسان مسئول عن نفسه وعما يقوم به من أبحاث بغض النظر عن أى شىء ، طالما أنهم فى نهاية كل شهر يحصلون على رواتبهم كاملة ، وهذا هو الهدف الأساسى من العمل .. طبعًا !

أما فى هذا القسم الذى شاء سوء حظهم أن يعملوا به ، فإن الدكتورة تحضر إلى مكتبها فى الثامنة صباحًا ، وتظل طوال اليوم تعد عليهم أنفاسهم ، وتتابع بنفسها عمل كل فرد منهم ، ولا تتردد فى توبيخ من يتقاعس أو يهمل فى عمله وتفعل ذلك علنًا وأمام جميع العاملين فى القسم ! لكنها فى نفس الوقت تشجع المجتهد وتثنى عليه ، وتبتكر الحيل لتلتف حول روتين الحكومة المعقد والقوانين البيروقراطية المعوقة للعمل حتى تصرف له مكافأة.

تحول المعمل بعد مرور سنة على وصولها لرئاسة القسم إلى معمل نموذجى ، يقترب إلى حد كبير من مثيله فى الدول المتقدمة ، بما فى ذلك استبدال بلاط الأرضية والحوائط المتآكل بآخر جديد ، وهو ما أحدث حالة من البهجة لدى موظفى وباحثى القسم ! استلزم الأمر بعض الوقت حتى يتعودوا على التعامل مع الأجهزة الرقمية الحديثة التى كان معظمهم لم يرها أو حتى يسمع عنها من قبل.

المعتاد فى أجهزة التكييف الخاصة بالمعامل أن تُضبط على درجة حرارة ثابتة صيفًا وشتاءً حتى لا تتأثر الأجهزة بتغيرات العوامل الجوية خاصة الرطوبة ، المؤسف أن مؤشر ضبط الحرارة تعطل بعد عدة شهور ! واستقر على درجة أقرب إلى البرودة وباءت محاولات زحزحته أو ضبطه بالفشل ، وظل ثابتًا بعناد فى مكانه.

هـذا الثبـات أثـار ضيـق الباحثـين وإلى حـد مـا غضبهـم مـن الجهـاز ، الـذى يحيـل جـو المـكان إلى شـتاء دائـم حتـى فى أحـر أيـام الصيـف.

بالطبـع أثـار تعطـل الجهـاز اهتـمام الدكتـورة ضمـن اهتماماتهـا الأخـرى الكثـيرة ، لكـن قبـل أن تتخـذ الإجـراءات المعتـادة بالاتصـال بالتوكيـل واسـتدعاء فنيـى الصيانـة ، وصـل خـبر ترقيتهـا ونقلهـا لمنصـب قيـادى فى الـوزارة.

عانـى الجهـاز مـن الضغطـات المتواليـة عـلى زرى التشـغيل والإغـلاق ، وصمـد لفـترة طويلـة بسـبب جودتـه وماركتـه العالميـة ، دخـل بعدهـا فى مرحلـة احتضـار فقـد فيهـا قدرتـه عـلى التبريـد ، ولم يهتـم رئيـس القسـم الجديـد باصلاحـه ناهيـك عـن صيانتـه ، تكاسـل عـن الاتصـال بالتوكيـل وطالمـا أن الجهـاز الموجـود فى مكتبـه ، والـذى اشـترته الدكتـورة بالطبـع يعمـل ، فـلا توجـد لديـه مشـكلة !

انتهـى الأمـر بمكيـف المعمـل المسـكين إلى حالـة مزريـة ، يخـرج منـه مجرد هـواء مصحوبًـا بحشرجـة لانهائيـة تشـبه الظـراط ، ثـم وصـل أخـيرًا إلى النهايـة ! لم يعـد يعمـل عـلى الإطـلاق وخمـدت أنفاسـه.

وقـف دكتـور أشرف يعالـج زر التشـغيل كأنـه يسـتجديه ، وبعـد محـاولات دار الجهـاز مطلقًـا زمجـرة عاليـة وصوتًـا منفـرًا يشـبه عـواء الذئـاب ، فضغـط حانقًـا عـلى زر الإغـلاق وهـو يسـب فى سره الإهمـال وانعـدام الإحسـاس بالمسـئولية لـدى النـاس.

obeikandl.com

مـطر الصحـراء

obeikandl.com

جدى هو أجمل مشكلة فى حياتى !

منذ أن كنت طفلًا فى الابتدائى وأى إنسان أتعامل معه يستغرب عندما يعرف اسمى الرباعى ويسأل على الفور عن علاقاتى به ، وهل بالفعل أمت بصلة قرابة له أم أن الأمر مجرد تشابه أسماء ، كان هذا يوترنى ويجعلنى فى حيرة لا أعرف معها كيف أتصرف.

عندما أجد نفسى فى هذا الموقف المربك الذى أصبحت لا أحبه وأنزعج منه لكثرة تكراره ، أنتظر رد الفعل الذى يتراوح بين الدهشة والإعجاب وأحيانًا عدم التصديق ، كأن صلة قرابتى بجدى هذا الرجل المشهور الذائع الصيت أمر خارق للعادة ..

كان الأمر أصعب بكثير مع زملائى وزميلاتى فى المدرسة الابتدائية ، كعادة الصغار يسارعون باتهامى بالكذب ولا يتورعون بهذه القسوة التى يتعامل بها الأطفال مع بعضهم بالسخرية منى ، لأجد نفسى موضعًا للسخرية والاتهام هكذا بلا ذنب ! أحد زملائى الصغار قال ونحن نقف بين مجموعة من تلاميذ الفصل ، إن والده قال عن جدى إنه مازال شابًا ومن غير المعقول أن يكون له حفيد فى المدرسة الابتدائية ، طبعًا لم يكن باستطاعتى الرد على هذه الحجة الدامغة التى استشهد فيها زميلى هذا بأبيه ، فكلام الأب يعد فى عرفنا كلام لا يمكن تكذيبه ومن العيب أن نستنكره أو نتهمه بالجهل وعدم الفهم ، صمتى وشعورى بالاختناق الذى كبل لسانى أكد لديهم ما يعتقدونه ، وجعلنى أقف أمامهم كمتهم متلبس بالجريمة وعاجز عن الدفاع عن نفسه.

ظل الأمر يسير على هذا المنوال لسنوات ، وكانوا عندما يشاهدونه

فى التليفزيون أو يقرءون أخباره فى الصحف والمجلات التى عادة ما تنشر صوره مع الحوارات ، أو فى التحقيقات التى تتناول مختلف جوانب حياته ، يتندرون أمامى ساخرين وهم يتحدثون عن البرنامج التليفزيونى الذى عُرض ليلة أمس ، أو يأتى أحدهم بالمجلة أو الجريدة معه للمدرسة ، وغير ذلك من التصرفات الطفولية التى أزعجتنى لسنوات ، طاردتنى فيها شهرة جدى حتى نغصت علىَّ حياتى الدراسية وساءت خلالها علاقاتى بجميع الزملاء ..

نظرًا لمشاغل جدى التى لا تنتهى وارتباطه بعلاقات عمل فى مجالات متعددة ، وسفره الدائم لمختلف دول العالم ، لم أكن أراه كثيرًا ، كما أن علاقته مع أبى لم تكن على ما يرام فى معظم الأوقات ، لكنى كنت أشعر بمدى ما يكنه لى من محبة جارفة ، فقد كنت وقتها حفيده الوحيد.

كان يبتسم ابتسامته الشهيرة عندما يرانى ، ويرحب بى وهو يتدفق حنانًا ، يداعبنى ويسألنى عن أمور حياتى كلها ، ويهتم بالتفاصيل الصغيرة ويسمعنى بانتباه وأنا أتكلم ، ولا يتردد فى تلبيه أى مطلب لى ، ويدقق فى أسئلته عن المدرسة والعلوم التى أدرسها ويهتم بشكل خاص بمدى تفوقى فى الدراسة وإذا كنت " تلميذ شاطر " فى الفصل أم لا ؟ وينظر لى بوجهه الذى ليس وسيمًا تمامًا لكنه يمتلك جاذبية آسرة ، وملامح محببة تعطيه هذا الألق والتميز الخاص به ، ينظر لى متفحصًا ومداعبًا ليتأكد من صدق إجابتى ، فقد كان متأكدًا من تفوقى ومفتخرًا به.

منذ بداية التحاقى بالمدرسة لم أواجه أى صعوبة فى الدراسة ، كنت أستوعب بسرعة وأفهم الدروس فى جميع المواد بسهولة ، وذاكرتى تمتلك القدرة على الحفظ بأقل مجهود ، لدرجة أنى لم أكن بحاجة إلى كثير من المذاكرة لأجيب عن أسئلة الامتحان فى نهاية العام وأحصل على الدرجات النهائية.

كنت أخجل أن أحكى له عن مشكلتى مع زملائى وما تسببه لى شهرته من مضايقات ، لكن وأنا فى نهاية السنة الخامسة ابتدائى تجرأت وحكيت له ، استمع لى كعادته بانتباه ، كان مندهشًا وأنا أحكى له ، ثم ضحك ضحكة طويلة عندما انتهيت.

– هؤلاء العفاريت زملاؤك لم يصدقوا .. لماذا ؟

قال وهو مازال يضحك.

– يقولون إنك مازلت شابًا وغير معقول أن يكون لك حفيد فى الابتدائى.

قهقه ضاحكًا وملأت السعادة وجهه ، ربما من شدة فرحه بمدى ما وصلت إليه شهرته حتى بلغت هذا الحد الأسطورى ، لكنه لم يلبث بعد أن انتهى من الضحك أن ظهرت على وجهه مسحة حزن ، تغيرت ملامحه إلى النقيض وقال بلهجة يشوبها الأسى:

– واجهت هذه المشكلة مع أبيك من قبل !

– جدى .. أريدك أن تأتى إلى المدرسة حتى يروك بأنفسهم.

نظر إلىَّ بغموض ثم قال.

– ساعتها قد تزيد المشكلة ، بعكس ما تعتقد!

لكنه أضاف بعد فترة صمت:

– لكنى على كل حال لا أحب أن يتهمك زملاؤك بالكذب.

***

بعد أيام وكنا قرب نهاية اليوم الدراسى ، حدثت ضجة فى المدرسة شعرنا بها ونحن فى الفصل ، كانت هناك حركة غير اعتيادية فى الممر ، سمعنا صوت الناظرة المهيب والذى كان يسبب لنا الرعب وهو يأتينا مرتفعًا تشوبه رنة فرح ويقترب رويدًا من باب فصلنا

، انتبهت المُدرسة وتوقفت تقريبًا عن الشرح ، وانتبهنا كلنا وآذاننا معلقة بصوت الناظرة وما يصاحبها من ضجة..

هذا الموقف كان يحدث على فترات متباعدة ، عند حدوث زيارة للمدرسة لأحد قيادات وزارة التعليم ، فعندما يقوم أحدهم بجولة تفتيشية كان يضع مدرستنا على رأس القائمة باعتبارها من أرقى المدارس على مستوى البلاد ، وكنا نعرف أن ناظرة مدرستنا المهيبة لا تغادر مكتبها لتصحب ضيفًا يزور مدرستها إلا فى حالات نادرة ، الوزير شخصيًا أو أحد وكلاء الوزارة ، فيما عدا هؤلاء فإن وكيل المدرسة أو أحد المدرسين الأوائل يتولى مرافقة الضيف فى جولته بين فصول المدرسة ومرافقها.

انفتح باب الفصل فجأة وأطل علينا وجه الناظرة مبتسمًا على غير العادة ، قبل أن تخطو خطوة واحدة داخل الفصل ، كنا قد وقفنا جميعًا وتكهرب الجو لهذه الزيارة المباغتة ، تطلعت نحو الباب متوقعًا ظهور الوزير وحاشيته ، لكن جدى أطل علينا والناظرة تلتفت نحوه تدعوه للدخول:

- اتفضل يا فندم.

بمجرد أن تقدم خطوتين هرعت مدرستنا من خلف مكتبها لتسلم عليه ، صافحته بحماس بينما هو يرمق مبتسمًا تلاميذ فصلنا ، الذين كانوا فى حالة أقرب للذهول وهم يتطلعون إليه !

كان يبدو رائعًا وهو يقف أمامنا بحضوره الطاغى ، رافعًا رأسه ليتأمل فى لمحة سريعة فصلنا بجدرانه ونافذته وسبورته ومقاعد الدراسة وحتى بلاط الأرضية ، ليتأكد بدقته المعهودة قبل أن ينطق بكلمة أن حجرة الدراسة على ما يرام لا ينقصها شىء.

بعد أن هدأت الضجة وخفتت حدة الانبهار التى سببها دخوله ، سأل مدرسة الفصل وهو يشير ناحيتى:

– ما أخبار عمر فى الدراسة ؟

– ممتاز ..

صاحت المدرسة وهى تضغط على حروف الكلمة لتؤكدها ، ثم أضافت بعد أن صمتت لعدة ثوانى بسبب ارتباكها:

– عمر من أوائل الفصل والمدرسة كلها يا فندم.

رد عليها بلهجته الواثقة وكلماته المنمقة.

– شكرًا لكم ، هذا بفضل مجهودكم ، وأكمل ملتفتًا إلى الناظرة ، وحسن إدارة المدرسة.

لم تستغرق الزيارة سوى خمس دقائق ، دخل خلالها جدى بمفرده بدون رجال حراسته ، الذين ظلوا فى سيارتهم عند بوابة المدرسة ، لكن هذه الدقائق غيرت مجرى حياتى الدراسية وعلاقتى بزملائى تغييرًا جذريًا.

***

جدتك كانت شابة جميلة ، فى غاية الجمال .. حتى الآن ما زالت محتفظة بجمالها برغم هذه التجاعيد التى ظهرت على وجهها فى الفترة الأخيرة ، طبعًا لشدة بياض بشرتها ورقتها ، أعجبت بها من اللحظة الأولى ، كانت مبهرة ورائعة عندما رأيتها فى إحدى المناسبات العائلية ، وأنا فى نهاية دراستى الجامعية وهى فى السنة الأخيرة من الثانوى ، شابة صغيرة وعالمها مغلق تقريبًا ، ولم يكن فى نية والدها أن تُكمل تعليمها ولا هى أيضًا ترغب فى مواصلة تعليمها ودخول الجامعة.

فى الوقت الذى كنت منبهرًا بها كانت هى ترانى مجرد عريس تقدم لخطبتها ، عريس لا بأس به ، شاب له مستقبل واعد ، حصل على امتياز فى جميع المواد التى درسها خلال سنوات الجامعة ، فى سابقة نادرة الحدوث فى تاريخ الكلية ، يعمل معيدًا وهو ما يعنى بالنسبة

لها أن مرتبه محدود بالكاد يفتح البيت ! هههههههههههه ..

عندما كلمت أبى وطلبت منه التقدم لخطبتها قال إنها فتاة مدللة وسوف تتعبك ولم يبد ارتياحُا ، لكنه رضخ أمام إصرارى ، والدها كان زميلُا له فى العمل وبينهما معرفة بسيطة لا ترقى للصداقة ، لكن الأمور سارت بسلاسة ودون معوقات.

ربما أكون يا عمر أحد أذكى العقول فى العالم ، وأمتلك قدرات خاصة ومتميزة فى الابتكار والاختراعات الجديدة ، وكذلك إدارة المشاريع الكبرى وبالطبع فى مجالى العلم والتفكير المجرد ، لكن أعترف أن لدىَّ مشكلة فى التعامل مع الطبيعة الإنسانية وكل ما له علاقة بالمشاعر ! لست جافُا ولا عديم الإحساس بدليل أنى أحببت جدتك حبُا عظيمُا ومن أول لحظة ، لكن طبيعتى وتركيبتى العقلية مادية بحتة ، الأرقام والمعادلات والحسابات هى عالمى الذى أغوص فيه بكيانى ويستغرقنى تمامُا ولا أتوقف عن التفكير فيه طوال الوقت ، حتى عندما أنام أحلم به ، يطاردنى فى أحلامى بإلحاح لا يرحم ..

لا أستطيع الاندماج فى تعاملات الحياة العادية ، بل إنى أكره هذه العادية التى تتركز فى مطالب لا تتعدى المال وكيفية الحصول عليه والأكل والشرب والملابس والسكن ، أما المناسبات العائلية حيث يتجمع الناس ليتبادلوا النميمة فلا أطيقها ، وأختنق عند وجودى بينهم فى هذه الأماكن ولا أجد ما أقوله ردُا على كلامهم السطحى وموضوعاتهم الساذجة.

برغم أنى حصلت على ثروة هائلة خلال مسيرة حياتى ، فإن المال لم يكن يومُا هدفُا من أهدافى ولم أسع أبدُا للحصول عليه ، لكنه جاء من تلقاء نفسه نتيجة لعملى المتواصل المرتبط بمجال الصناعات الدقيقة ، واختراعاتى الكثيرة التى أسهمت إسهامُا كبيرُا فى تطويرها ، ربما كان هذا من حسن حظى ، أن تكون موهبتى وقدراتى العقلية

متصلة بمجال صناعة أجهزة يحتاجها الناس ويقبلون على شرائها بأعداد تصل إلى مئات الملايين !

المعمل بما فيه من أجهزة علمية ومواد متعددة هو مكانى الذى أنتمى إليه ، وأجد ذاتى فيه ، بالإضافة إلى مكتبى الملحق به حيث المراجع والأبحاث التى تصلنى يومًا بيوم من مختلف دول العالم ، ساعات اليوم الأربع والعشرين لا تكفى لأنتهى من أعمالى وتجاربى وأفكارى الجديدة ، ولأدون وأكتب ملاحظاتى ونتائج التجارب الأولية التى يقوم بها فريق المساعدين الذى يعمل معى.

عندما أدخل المعمل تنقطع صلتى بالعالم الخارجى بكل ما فيه من علاقات ومشاكل ، تنقطع صلتى بالحياة ذاتها ، إلا ما كان مرتبطًا بالعمل والتجارب ، أدخل عالمى الخاص الذى أعيش فيه حياة أخرى أستمتع خلالها باستخدام طاقاتى العقلية ، بالتعامل مع التعقيدات التقنية وتحدياتها المستمرة ، التى لا تتوقف عند حد مع تطور العلم وعمل آلاف العقول فى العالم يوميًا فى ابتكار الجديد وتطوير القديم ، القديم هنا يعنى ما تم ابتكاره منذ عام أو عامين لا أكثر ، قد أكون جنيت على حياتى الخاصة وعلاقتى بأفراد أسرتى نتيجة طموحى ، ورغبتى المحمومة فى تحقيق مكانة علمية ، تضع اسمى فى صدارة علماء العالم.

الشابة الجميلة التى تزوجتها تحملت قدر ما تستطيع ، مثل أى فتاة فى عمرها كانت تريد أن ترى الدنيا وتتفسح ، وتخرج مع زوجها الشاب إلى المتنزهات والسينما والمسرح ، تزور أقاربها بصحبته وتقضى الأمسيات العائلية فى شرفات البيوت المطلة على الشوارع الواسعة أو على النيل ، حيث الجميع يتسامرون ويضحكون ويسلون وقتهم فى الكلام والنميمة والأكل واحتساء المشروبات الساخنة والباردة.

كان هذا نمطًا من الحياة الناعمة التى تميل للخمول وإضاعة الوقت

فيما لا ينفع ، ولم يكن عندى وقت لأضيعه فى مثل هذه التافهات ، وفى المرات القليلة التى حضرت فيها هذه المناسبات كنت أجلس صامتًا أغلب الوقت لا أجد ما أشارك هؤلاء السعداء فيه.

فى الحقيقة كانوا يتعاملون معى باحترام وفى نفس الوقت يتحرجون من غرابة أطوارى بالنسبة لهم ولطبيعة حياتهم المختلفة عما نشأت عليه ، أبى كان لديه مكتبة ضخمة عامرة بالكتب ، يقضى معظم فترة المساء فى القراءة ، الزيارات العائلية فى بيتنا كانت قليلة للغاية ، وكذلك زياراتنا نحن لبيوت الآخرين.

أسرة جدتك كانت أسرة منفتحة على الحياة ، لديهم دائما فائض من الوقت يقضونه فى التنزه والرحلات والمرح ، أما أنا فمنذ شبابى المبكر أشعر بأنى مشغول على الدوام وليس لدىَّ وقت لأضيعه حتى فى أوقات فراغى التى لا أعمل فيها شيئًا !

كنت أقدس العمل وأجد أن تمضية الوقت فى غير العمل عبث لا يليق برجل جاد.

***

صمت جدى وتوقف عن الكلام عند هذا الحد ، كانت المرة الأولى التى يتحدث فيها معى عن أسرار حياته الشخصية ، ومشاعره الدفينة التى لا يبوح بها لأحد ، ربما أرادنى أن أتعلم من تجربته فى الحياة دون أن يفرض علىَّ رأيه أو يوجه لى نصائح مباشرة ، وأنا على مشارف الثامنة عشر وقد أنهيت دراستى الثانوية حاصلًا على امتياز فى جميع المواد.

بعد ظهور النتيجة اتصل بى وحدد موعدًا لأزوره فى فيلته الواقعة فى ضاحية بعيدة من ضواحى القاهرة ، تُطل على الصحراء ، الفيلا أقرب للقصر تحيط بها حديقة شاسعة ويلف حول الحديقة سور بارتفاع أربعة أمتار ، تعلوه من الداخل قمم أشجار عملاقة داكنة

الخضرة ، هناك سيارتان شرطة تقفان فى الشارع بجوار البوابة الإلكترونية المزودة بكاميرات مراقبة ، رحب بى رجال الأمن الذين يجلسون فى المكتب الداخلى للبوابة.

ليس من السهل مقابلة جدى ! لكن فى الحقيقة الأمر أعقد من مجرد مقابلة أو لقاء .. منذ طفولتى المبكرة وأنا أسمع بشكل غامض عن التهديدات التى تلاحق حياته ، وكنت أستغرب من وجود رجال الحرس حوله باستمرار ، الآن أدرك بشكل أكثر وضوحًا معنى هذه التهديدات .. ومدى خطورتها.

كان الوقت فى الصباح المبكر ، ينام جدى فى الثانية صباحًا ويستيقظ فى تمام السادسة ! مثلى بالضبط ، ورثت الكثير من صفاته ومنها هذه الصفة ، النوم لأربع ساعات فقط فى اليوم ، استيقظ بعدها نشيطًا متوقد العقل بلا ذرة إحساس بالخمول أو الكسل.

- سيادة الوزير ينتظرك.

قال أحد رجال الأمن وهو يفسح لى الطريق ، كان جدى قد تم اختياره مؤخرًا كعضو فى هيئة مستشارى الرئيس ، وهو منصب أو درجة وظيفية تعادل الوزارة !

تجاوزت البوابة من الباب الصغير المخصص للمشاة ، ودخلت إلى الحديقة المبهجة كجنة صغيرة ، بساط مفتوح من النجيل الزاهى الخضرة ، أنواع متعددة من أشجار الزينة تتوزع بتناسق هندسى دقيق مع أحواض الزهور ، سرت على الممشى المبلط بأحجار الرخام والمتعرج الزاوية والانحناءات بنظام جمالى بحيث يمر بين تجمعات النباتات والزهور ، ليصل إلى النافورة التى تتوسط الحديقة ، هناك طريق آخر للسيارات وهو طريق مستقيم يصل من البوابة مباشرة إلى الجراج خلف الفيلا.

رأيت جدى جالسًا على مقعده الصيفى المعتاد تحت شجرة عملاقة

، وأمامه على مسافة قريبة النافورة ، يندفع من فوهاتها خيوط من الماء تلتقى فى مجارى رخامية لتتحول إلى أربعة شلالات ، تسقط فى بركة النافورة الفيروزية.

كان مستغرقًا فى قراءة جريدته اليومية ، سألنى بعد أن حييته وجلست إذا كنت قد تناولت إفطارى أم لا ؟

يلتزم جدى بنظام غذائى دقيق ومرتب ، وهو بلا مزاج تقريبًا ، لا شاى ولا قهوة ولا تدخين ، يهتم أن يأكل أكلًا صحيًا متوازنًا فى نسب المكونات والسعرات الحرارية ، وتقريبًا يحسب عدد وحدات البروتين والنشويات والسكريات فى كل وجبة يتناولها ، ولا يهتم كثيرًا بمذاق الأكل أو نكهته طالما أنه صحى ومغذى ولا يضر الجسم ، وعلى عكس أقرانه من علماء الفيزياء له إلمام واسع بعلوم التغذية بشكل مدهش ، يدهشنى أنا على الأقل ، فهذا الأمر أحد مناطق الاختلاف بينى وبينه ، فأنا أحب أن استمتع بالطعام وبمذاقه بغض النظر عن تركيبته الكيميائية ، وكذلك الأمر بالنسبة للشاى والقهوة والسجائر التى بدأت تدخينها منذ فترة قريبة ،

كنت قد تناولت إفطارًا خفيفًا حتى لا أتعرض لتأنيبه عندما يسألنى هذا السؤال ، فى هذه السن لم أعد أرغب أن يستمر فى معاملتى كطفل.

أجبته مازحًا:

– نعم يا سيادة الوزير تناولت الإفطار قبل خروجى من البيت.

نظر إلىَّ مبتسمًا ، ثم أشار إلى أحد العاملين فى الفيلا وطلب منه أن يُعد لى الشاى وبعض الساندويتشات.

تناولت إفطارى للمرة الثانية مرغمًا ، فلا أحب أبدًا أن أُغضب جدى ولا أن أكدر علاقتى به لأى سبب مهما كان ، وهو الأمر الذى فعله أبى معه بامتياز.

هـذه العلاقـة المتوتـرة بينهـما كانـت أكـبر منغصـات حياتـى ، وجعلتنـى مـوزع العاطفـة بينهـما ، الجـد العـالم الفـذ ، والأب المغامـر المندفـع الـذى لا يخلـو مـن طيـش برغـم مـا حققـه مـن نجـاح عـلى مسـتوى الأشـخاص العاديـين مـن عامـة النـاس ؟!

طبيعـة شـخصيتى وتركيبتهـا النفسـية وعاداتهـا أقـرب لجـدى ، لكـن الصفـة الأهـم والأكثـر تأثـيرًا بالطبـع .. هـى وراثتـى لملكاتـه العقليـة ومسـتوى ذكائـه الخـارق ، أو عـلى الأقـل أقـترب منـه إلى حـد كبـير ، فالزمـن وحـده هـو القـادر عـلى كشـف مـدى هـذا التقـارب وكيفيتـه ، الأمـر لا يُقـاس فقـط مـن الناحيـة النظريـة والقـدرة عـلى اجتيـاز اختبارات الـذكاء والحصـول عـلى الدرجـات النهائيـة فى الامتحانـات الدراسـية ، ولكـن بتوظيـف هـذه القـدرات واسـتخدامها فى الابتـكار وصنـع أفـكار جديـدة تُسـهم فى تطويـر العلـم النظـرى مـن ناحيـة البحـث الأكاديمـى الخالـص ، والدفـع كذلـك بالعلـم التطبيقـى الـذى يمـس حيـاة النـاس بشـكل مبـاشر ، ويعمـل عـلى زيـادة إمكانيـات الأجهـزة والمعـدات والمواتـير فى كافـة مجـالات العمـل والتصنيـع.

انتهيـت مـن تنـاول الإفطـار والاسـتمتاع برشـفات الشـاى الـذى كنـت فى حاجـة إليـه بعـد المشـوار الطويـل الـذى قطعتـه ، مـن أقـصى شرق المدينـة حيـث يسـكن أبـى إلى أقـصى غربهـا حيـث تقـع فيـلا جـدى !

كنـت أشـعر بحاجـة لتدخـين سـيجارة أيضًـا ، لكـن هـذه الرغبـة لم يكـن هنـاك مجـال لتحقيقهـا ، بـل إنـى لم أجـرؤ عـلى حمـل علبـة السـجائر وإخفائهـا بـين طيـات ملابسـى وأنـا ذاهـب لمقابلـة جـدى ، سـمعت عـن صدمتـه البالغـة فى أبـى عندمـا عـرف أنـه يدخـن ، كان وقتهـا فى مثـل عمـرى الآن ، وثورتـه العارمـة عليـه ، واعتبـاره إنسـانًا فاشـلًا لا يصلـح لشـىء ، ليـس فقـط بسـبب التدخـين ولكـن لحصولـه عـلى درجـة مقبـول فى شـهادة الثانويـة أيضًـا ، حـدوث الأمريـن معًـا كان بمثابـة كارثة بالنسـبة لجـدى وتحطيـم لأملـه فى ابنـه الوحيـد.

طوى جدى الجريدة بحرص وقام عن كرسيه ، لمحت نظرة الفخر فى عينيه وهو ينظر لى مبتسمًا وأنا أقف بجانبه قبل أن نسير معًا ، كنت قد أصبحت أطول منه وأعرض جسمًا ، تأبط ذراعى برفق ونحن نتمشى نحو الفيلا.

– لقد تحققت فيك المعادلة التى كنت أرجو أو أتوقع أن تحدث مع أبيك ، معادلة الصفات الوراثية بينى وبين جدتك.

– تقصد صفات العقل والجسد.

– العقل والشكل .. أبوك ورث صفات أمه شكلًا وموضوعًا ، الوسامة وجمال الشكل مع الغباء وخفة العقل.

– جدى .. أبناء العباقرة ليس بالضرورة أن يكونوا مثل آبائهم ، بل إن هذا الأمر نادر الحدوث فى التاريخ ، العبقرية حالة فردية يا جدى.

نظر لى باستغراب قبل أن يقول:

– هذا صحيح ، لكن على الأقل كان يتفوق فى دراسته ، درجاته المتدنية ونجاحه الدائم على حافة الرسوب طوال سنوات الدراسة نغص حياتى أيامها.

ابتلعت ريقى بحركة لا إرادية قبل أن أقول:

– هناك صفات أخرى لك ، ورث أبى منها الكثير ، الأمر ليس قاصرًا على التفوق العلمى ومستوى الذكاء.

انتبه لى كأنه فوجئ ، وقال بهدوء وهو يضغط على الكلمات.

– وما هى هذه الصفات .. من وجهة نظرك؟

– الحضور وقوة الشخصية والجرأة فى التعامل مع الحياة ، كما أنه رجل ناجح فى عمله ..

– ربما .. طبعًا فهو ابنى فى نهاية الأمر ، لكنى كنت أتمنى أن يرث

obeikandl.com

قدراتى العقلية قبل أى شىء.

– ليس كل ما يتمناه المرء يدركه يا جدى ، الحياة لا تعطى الإنسان كل شىء.

ابتسم ونظر لى ، ثم قال بعد فترة:

– معك حق .. الحياة لا تعطى الإنسان كل ما يريده ، مهما بذل من جهد فى سبيل تحقيق أحلامه.

***

بعد أن دخلنا غرفة المكتب فى الفيلا ، وقبل أن يجلس جدى على كرسى مكتبه ، سمعنا طرقة خفيفة على الباب ثم لم تلبث الدكتورة نجوى أن أطلت علينا بوجهها البشوش ، زوجة جدى أو جدتى الثانية ، كانت مرتدية ملابس الخروج وتُمسك بحقيبتها الكبيرة التى تحتوى على أوراق المحاضرات ، رحبت بى بحرارة كعادتها ثم ودعتنا سريعًا لتذهب إلى عملها فى الكلية.

الدكتورة أصغر من جدى بعشرين سنة ، كانت تلميذته ، تزوجها وهى مُعيدة فى الكلية ، حدث ذلك قبل مولدى ، بل قبل أن يتزوج أبى ، لذلك أعتبرها بمثابة جدة لى ، فقد نشأت وهى أمامى كجدة ثانية ، حيرنى هذا فى بداية طفولتى ، ولم أستوعب بوضوح الفارق بينها وبين جدتى الحقيقية ، إلا بعد أن تجاوزت سنوات الطفولة المبكرة.

أسئلتى للكبار فى هذه المرحلة كانت تسبب الضيق والحرج لهم ، كنت أرقبهم وهم ينظرون إلى بعضهم البعض قبل أن يبدأوا فى تفسير هذه المعضلة بكلمات مرتبكة ، تجعل الموقف أشبه ما يكون بأحد مشاهد الأفلام الكوميدية ، التى كنت أحب مشاهدتها وأضحك مثل كل الأطفال على المواقف المحرجة ، التى يرتبك فيها الممثلون ويتلجلجون فى كلامهم وتظهر على وجوههم تعبيرات البلاهة

والعبط وهم يتبادلون نظرات التحذير والغمزات الضاحكة ، دون أن أفهم بالضبط معنى ما يدور أمامى من علاقات معقدة بين أبطال وبطلات الفيلم !

جدتى الثانية تعتبر الصورة النسائية النقيض لجدتى الأولى ، شخصية متزنة هادئة راجحة العقل تتمتع بثقافة عالية ، النموذج المثالى للأستاذة الجامعية من حيث العقلية والشخصية ، لكنها فى المقابل متوسطة الجمال أو عادية.

لمحت على طرف المكتب علبة صغيرة أنيقة ، بمجرد أن خرجت الدكتورة من الغرفة تناولها جدى وقدمها لى.

– هديتى لك بمناسبة نجاحك.

نظرت إلى علامة رولكس الشهيرة على الغطاء الخارجى للعلبة وشكرته بامتنان.

أشار إلى الكرسى المواجه لمكتبه وقال اجلس ، بينما جلس هو على كرسيه خلف المكتب كأننا فى مقابلة رسمية ! سألنى عن الكلية التى أريد الالتحاق بها وعن نوع الدارسة التى أرغب فيها ، صُدم إلى حد ما عندما أخبرته أنى أريد دراسة الكيمياء !

– هذا علم مهم وعظيم ، لكنك متفوق فى الرياضيات أيضًا.

– نعم يا جدى ، لكنى أحب الكيمياء أكثر وأجد نفسى فيها ، خاصة الكيمياء الحيوية المرتبطة بالهرمونات والإنزيمات والتركيب الكيميائى للخلية الحية ..

هز رأسه بهدوء دون أن يبدو على وجهه أى انطباع ، كأنه يفكر فى الأمر ويقلبه فى رأسه.

– لا بأس .. كما تريد.

ثم حول عينيه إلى الدولاب الذى يحوى مجموعة الأقواس والسهام ،

عـدد كبـير مـن الأقـواس معلقـة طوليًـا بنظـام حسـب أحجامهـا وبجانبهـا علـب السـهام الجلدية.

الرمـى بالسـهام هوايتـه الأثـيرة العجيبـة ، طالمـا تعجبـت من تلـك الهواية الغريبـة لديـه ، يمتلـك أقواسًـا وسـهامًا متعـددة الأشـكال والأحجـام والألـوان ، جمعهـا مـن مختلـف دول العـالم أثنـاء سـفرياته الكثـيرة.

قـام برشـاقة عـن كرسـيه واتجـه إلى الـدولاب ، مـد يـده وسـحب قوسًـا رفيعًـا مدبـب الطرفـين ، تحسـس وتـره وجذبـه بطـرف إصبعـه عـدة مـرات ليتأكـد مـن ضبطـه ، ثـم تنـاول إحـدى علـب السـهام.

- تعال.

تبعتـه وهـو يمشـى بنشـاط إلى الحديقـة الخلفيـة للفيـلا ، حيـث لوحـة التصويـب ذات الدوائـر الملونـة التـى تنتهـى فى المنتصـف بالدائـرة السـوداء المصمتـة.

عـلى بعـد عشريـن مـترًا مـن اللوحـة وقـف الدكتـور حسـام الديـن العنـترى العـالم المرمـوق ، عنـد منصـة الإطـلاق ، أخـرج السـهام مـن علبتهـا ووضعهـا فى المكان المخصـص لهـا ، أمسـك بالقـوس ووضـع فيـه السـهم الأول وشـد قامتـه وركـز للحظـات قبـل أن يُطلـق السـهم.

كنـت أراقبـه بإعجـاب وهـو يصـوب سـهامه بدقـة نحـو الدائرة السـوداء ، يبـدو مهمومًـا بـشيء مـا ، بالطبـع لا يمكـن لى أن أعـرف السـبب ، فبئـر أسراره عميـق بـلا قـرار .. هنـاك مـن يلعـب الشـطرنج وهنـاك مـن يدخـن ويـشرب القهـوة ليخفـف مـن التوتـر ويزيـح الضغـط العصبـى عـن نفسـه ، أمـا جـدى فيلجـأ إلى أقواسـه وسـهامه !

يـمارس هـذه الهوايـة فى سريـة ، تعلمهـا عندمـا كان فى أوروبـا وهـو فى مطلـع شـبابه أثنـاء بعثـة الدكتـوراه ، وشـغف بهـا بقيـة حياتـه ، وسـائل الإعـلام والصحافـة التـى تتتبـع أخبـاره وتفاصيـل حياتـه لا تعـرف شـيئًا عـن هـذه الهوايـة المندثـرة فى بلادنـا !

التفت نحوى بعد أن سدد عشرة سهام.

– سوف أسافر فى رحلة الأسبوع القادم ، أريدك أن تأتى معى.

***

بعد أن زار جدى المدرسة حاصرنى زملائى بالأسئلة والفضول ، وأصبحوا يتقربون منى ويسعون لصداقتى ، تغيرت علاقتى بهم وتبدلت أحوالهم معى ! وهذا وضعنى فى موقف لا أحسد عليه ، فى تلك السنوات من الطفولة كنت مستمتعًا بهذا الشعور وفخورًا بقرابتى له ، وينتابنى هذا الإحساس بالتباهى على الجميع ، وأجد متعة خاصة فى الحديث عن جدى وحياته وشخصيته وطباعه وكل ما يمت له بصلة.

لكن مع مرور السنوات أخذت أشعر بوطأة شخصيته على حياتى ، وأنى فى وضع غير طبيعى ، توارت شخصيتى خلف وجوده الطاغى ، لم أعد عمر طارق حسام العنترى ، بل فقط حفيد الدكتور حسام العنترى ! كأنى مطارد فى كل مكان وفى كل علاقاتى ، حائط لا مرئى يحدد تصرفاتى وسلوكى مع الآخرين ، هذا الحائط كان يكبر معى ويتضخم مع سنوات عمرى.

فى هذه الفترة المبكرة من حياتى كان علىَّ أن أقرر ، أن أكون نفسى وأصنع شخصيتى ووجودى الخاص ، أو أكون فقط حفيد الدكتور العنترى ، العالم الفذ الذى استطاع أن يغير مسيرة الوطن ويخرج به من حالة الركود التى كان عليها ، ويقوده بعلمه واختراعاته المبتكرة وعقله الجبار وشخصيته القيادية إلى وضع آخر .. اختلف تمامًا عما كان قبله ، إرادته الفولاذية جعلته يرفض بيع أبحاثه واختراعاته ، التى تجاوزت المائة اختراع إلى الدول الكبرى لتستغلها فى تطوير صناعاتها ، ويرفض كذلك جميع الإغراءات التى قُدمت له من أكبر الجامعات وأرقى المراكز البحثية فى الدول المتقدمة ، ليعمل بها أو يتعاون معها

عـلى أقـل تقديـر.

علمـى وعقـلى فى خدمـة وطنـى فقـط ، ولا خـير فى هـذا العقـل إذا أسـهم فى تنميـة بـلاد هـى أصـلًا متقدمـة ، وتـرك بلـده يعانـى الفقـر والتخلـف العلمـى ..

كانـت كلمتـه التـى قالهـا وهـو فى مطلـع الثلاثينيـات مـن عمـره ، حدثًـا فريـدًا وقتهـا ، أثـارت صخبًـا كثـيرًا وحركـت الميـاه التـى ظلـت راكـدة لعقـود طويلـة مـن الزمـن !

***

كان الأمـر يتطلـب الكثـير مـن الجهـد للخـروج مـن عبـاءة الجد وسـيطرة شـخصيته ، تشـكيل حياتـى ومسـيرتها أمـر يخصنـى وأنـا المسـئول عنـه ولا أحـد آخـر ، أديـن لـه بالفضـل ، خاصـة فيـما ورثتـه عنـه ، وأعتـز بصلتـى بـه ، لكنـى ومنـذ أن وصلـت للمرحلـة الثانويـة مـن دراسـتى ، قـررت أن أصنـع مسـتقبلى بيـدى وبإرادتـى.

كانـت تجربـة أبـى المريـرة ماثلـة أمامـى طـوال الوقـت ، نمـوذج لا أحـب أن أحتذيـه ولا أن أسـير عـلى طريقـه ، تمـرد عـلى أبيـه بأسـلوبه الخـاص الـذى لا يناسـبنى ! فى فـترة شـبابه تعمـد الإهمـال فى دراسـته فـكان ينجـح بالـكاد وهـو فى المدرسـة ، وعندمـا التحـق بالجامعـة رسـب عـدة مـرات وقـضى فى كليتـه النظريـة سـبع سـنوات ، وفى الوقـت الـذى كان فيـه أبـوه يتجـه نحـو المسـتقبل باختراعاتـه وأبحاثـه ويدفـع أمامـه شـعبًا بأكملـه ، اتجـه هـو وبشـكل قـد يبـدو متعمـدًا نحـو المـاضى فاختـار دراسـة التاريـخ فى الجامعـة والتحـق بكليـة متخصصـة فى هـذا العلـم.

ينـام لثمانـى أو تسـع سـاعات فى اليـوم ، طبيعتـه القريبـة مـن طبـاع الفنانـين ، ترفـض القيـود والالتزامـات وتحـب الانطـلاق والحيـاة المفتوحـة ، السـفر والترحـال عـبر أماكـن جديـدة ، والتغيـير المسـتمر بعيـدًا عـن نظـام روتينـى يجعـل مـن الأيـام يومًـا واحـدًا بـلا نهايـة كـما تسـير حيـاة

الموظفين الرتيبة ، حتى لو كان هؤلاء الموظفون أساتذة فى الجامعة ! هذه الطبيعة جعلته ينجح عندما بدأ فى العمل كمرشد سياحى ، يتنقل مع مجموعات متجددة من السائحين بين المواقع الأثرية المنتشرة فى طول البلاد وعرضها.

لكنه فى جميع مراحل حياته حتى بعد أن تزوج ، لم يستطع أن يعيش دون الاعتماد على أبيه ، برغم تمرده عليه فإنه ظل يتمتع بالمزايا التى يمنحها له انتماؤه لهذا الأب ، حتى دون أن يشعر يحيا حياة الابن لأب عظيم القدر يتمتع بمكانة كبيرة فى مجتمعه ، وبثروة طائلة كذلك.

ابن الدكتور حسام العنترى ، هذا هو ابن الدكتور العنترى ، أينما ذهب يشار إليه ، حضرتك ابن الدكتور حسام ، أهلا وسهلًا تشرفنا بك ، كان موظفو الحكومة فى أى هيئة أو مؤسسة يقومون عن مكاتبهم عندما يرون بطاقة هويته ليرحبوا به ، ويبدوا استعدادهم لتقديم خدماتهم لابن الدكتور ..

لم يكن فقط قد استسلم – بعد تمرد مرحلة الشباب – لهذا الوضع كأنما لا مهرب منه ، بل أدرك أنه لا حيلة له مع اختيار القدر فتعايش أو خضع لهيمنة شخصية الأب على حياته ! برغم تنافر شخصيتهما ووجود مساحة من الجفاء بينهما جعلت علاقتهما دائمة التأرجح ، وفى حالة شد وجذب مستمرة.

***

وقف عمر على بعد عدة خطوات من جده يراقبه وهو يمارس رياضته الأثيرة ، صوت السهم وهو يخرج من القوس ليشق الهواء ، حاد وخاطف وإلى حد ما مرعب ، بالنسبة للجد تساعده رياضة الرماية بالقوس على التركيز وتجديد نشاطه ، يشعر وهو يمارسها بحالة من الصفاء الذهنى ، تساعده على تفريغ التوتر والتخلص من الضغوط العصبية ، يلجأ إليها عندما يكون منشغلًا باختراع جديد أو

بفكـرة تتعلـق ببحـث يعمـل فيـه.

عـرف الرمايـة عـن طريـق بعـض زملائـه وهـو فى بعثـة الدكتـوراه بأوروبـا ، ذهـب معهـم إلى النـادى القريـب مـن الجامعـة ، اسـتهوته مـن المـرة الأولى التـى رآهـم فيهـا وهـم يتدربـون ، أعجبتـه الأقـواس والسـهام وهـو يراهـا أمـام عينيـه ، تأثيرهـا مختلـف فى الواقـع عـن مشـاهدته لهـا فى الأفـلام السـينمائية ، بعـد سـاعة مـن مشـاهدته لهـم ، سـأل إن كان مـن الممكـن أن يجـرب ؟

كانـت المـرة الوحيـدة فى حياتـه التـى تعجبـه فيهـا هوايـة مـا إلى الحـد الـذى يدفعـه لتجربتهـا ، كان يسـتهجن جميـع ألعـاب التسـلية المعروفـة ، ويرفـض حتـى أن يشـغل بالـه بمتابعتهـا لـو تصـادف وكان عـلى مقربـة ممـن يلعبونهـا ، حتـى الشـطرنج لعبـة العقـل والـذكاء وجدهـا مملـة وبطيئـة الإيقـاع بشـكل لا يطـاق !

رحـب زمـلاؤه بمشـاركته لهـم ، بـل أسـعدهم أن يشـاركهم ، كان نبوغـه وقدراتـه العقليـة الخارقـة للعـادة أعطتـه مكانـة متميـزة فى الجامعـة بأسرهـا ، أخـذوه يعلمونـه كيـف يمسـك القـوس ويُحكـم قبضتـه عليـه وكيفيـة شـد الوتـر حتـى آخـر نقطـة تسـمح بهـا مرونـة القـوس ، كيـف يضـع نهايـة السـهم بـين إصبعـين ويتحكـم فى اتجاهـه حتـى يبقـى مسـتقيمًا تمامًـا ومتعامـدًا مـع القـوس ، كيـف يصـوب ويجعـل رأس السـهم فى اتجـاه الهـدف ، ويقـدر اتجـاه الريـح وسرعتهـا وتأثيرهـا عـلى مسـار السـهم ، وهـو أمـر يحتـاج إلى خـبرة ولا يكتسـبه الرامـى إلا بعـد شـهور طويلـة مـن التدريـب ، ثـم يُطلـق فى النهايـة بعـد أن يُكسـب السـهم أقـصى قـوة تسـمح بهـا مرونـة القـوس وجذبـة الوتـر.

أعجبـه فرديـة هـذه الرياضـة وعـدم وجـود التحـدى المبـاشر مـع أحـد ، عـدم وجـود صراع سـواء بالقـوة البدنيـة أو العقليـة بـين شـخصين أو مجموعـة أشـخاص ، واسـتطاعة الإنسـان أن يمارسـها وحيـدًا دون الحاجـة

لوجود أحد معه ، كما أنها لا تتطلب وجود معاونين أو عمال لتهيئة الملعب والعناية به ، لا شيء سوى مكان مناسب ، مساحة من الأرض تسمح أن يخلو فيها الإنسان مع ذاته ، لا يتحدى سوى نفسه وقدراته واتجاه الريح.

كنت دائمًا صاحب طموح هائل ، ورغبة مستمرة فى التفوق وتحقيق النجاح ، عرفت قدراتى ومدى نبوغى منذ الصغر ، هكذا خُلقت أو هكذا وجدت نفسى وتعرفت عليها فى سنوات عمرى المبكرة ، متميزًا ، نابغًا ، عبقريًا بلا أى مبالغة أو غرور ، لست شخصًا عاديًا يمر على الحياة مرور الكرام ، لا بد للتاريخ أن يتوقف ويتمهل قليلًا وهو يمر بى ، فقد صنعت الكثير وغيرت مصير بلد بأكمله ، جعلت العلم فى المرتبة الأولى بعد أن كان على هامش حياة الناس واهتماماتهم .. ساعدنى القدر بالطبع وكان الحظ إلى جانبى دائما.

طاش السهم .. أصاب الدائرة الأخيرة ، يبدو أننى سرحت مع أفكارى وفقدت جزءًا من تركيزى ، لا بأس يكفى هذا اليوم.

عندما رجعنا إلى الفيلا كانت عمتى هدى جالسة تتناول إفطارها وتتصفح الجرائد الإلكترونية على السفرة ، تخرجت منذ عدة أعوام فى كلية الهندسة وتعمل مصممة أجهزة خاصة بصناعة السيارات.

قامت بقامتها الفارعة وجسدها الممتلئ نوعًا لترحب بى بمجرد أن رأتنا ندخل صالة الفيلا ، وقفت معها لعدة دقائق نتبادل التحية بينما سبقنى جدى إلى غرفة مكتبه ، سألتنى عن أبى وأحواله وظروف عمله باهتمام ثم عن دراستى المنتظرة فى الجامعة ، علاقتها بأخيها الأكبر ، أبى ، ودودة للغاية ، قالت لى إنها اتصلت به منذ اسبوع ، سوف أحصل على إجازة قريبًا وأذهب معه فى رحلة إلى الأقصر.

***

اخرج جدى ثلاث ورقات من درج مكتبه ودفع بها إلىَّ ، عرفت

على الفور أنها أحد أنواع اختبارات الذكاء ، أجريت العشرات منها قبل ذلك فى مسابقات المدارس على مستوى الجمهورية ونادى الأذكياء الذى انضممت إليه وأنا فى المرحلة الابتدائية ، لكنها كانت المرة الأولى التى يطلب فيها جدى اختبارى بنفسه.

– دعنى أرى كيف ستجيب عن هذا الاختبار.

تناولت الورق مبتسمًا دون نقاش.

– حاضر.

اختبار مستويات عليا معقد وصعب ، لكنى شرعت فى الاجابة بكل قدراتى على التركيز والتفكير ، انتهيت بعد أقل من عشرين دقيقة وسلمته الأوراق ، نظر فيها بتمعن ثم ابتسم ابتسامة غامضة وهز رأسه العبقرى دون أن يعلق .. لكنه قال بعد فترة صمت:

– سوف نسافر الأسبوع القادم إلى المدينة الجديدة ، سوف ترى المصنع الجديد قبل الافتتاح ، سينتج جهازًا غير مسبوق ! الوحيد من نوعه فى العالم !

***

لم يكن النهار قد طلع بعد عندما تحركت قافلة السيارات متجهة نحو المدينة الجديدة فى الصحراء والتى تبعد عن العاصمة بنحو أربعمائة كيلو متر.

العمل يجرى بخطوات متمهلة لكن واثقة لإنشاء هذه المدينة المبتكرة ، معظم مرافقها تعمل بمخترعات الدكتور حسام العنترى ، تشقها قناة تصل إلى البحر الذى يُبعد بمسافة سبعين كيلو مترًا ، تقع فى منتصف المدينة بحيرة صناعية ذات شاطئ دائرى ساحر تظلله غابات من النخيل ..

اصطفت السيارات أمام فيلا منعزلة فى أقصى المدينة ، توقفت لعدة

ثـون حتـى تتلاشـى الوسـادة الهوائيـة تحتهـا وتهبـط مسـافة نصـف المـتر التـى تفصلهـا عـن الأرض ، نـزل الدكتـور حسـام وسـار نحـو البوابـة بخطواتـه النشـيطة ومـن خلفـه حفيـده ، توقـف للحظـات متأمـلًا المبنـى الـذى كان أول بنـاء سـكنى يُقـام فى هـذه البقعـة مـن الصحـراء كنمـوذج تطبيقـى لأفـكاره فى اسـتخدام الطاقـة الطبيعيـة وتحويلهـا.

الفيـلا تحـول طاقـة الشـمس إلى كهربـاء عـبر تقنيـات اخترعهـا الدكتـور حسـام ، سـار فى طريـق جديـد ومختلـف تمامًـا عمـن سـبقوه فى هـذا المجـال ، فبـدلًا مـن الفكـرة القديمـة القائمـة عـلى اسـتعمال المرايـا والأسـطح المصقولـة العاكسـة للأشـعة التـى تعتمـد عـلى الخلايـا الكهروضوئيـة مـن شـبه موصـلات سـليكون ، والتـى يتـم ضغطهـا في رقاقـة معالجـة بشـكل خـاص لتشـكل حقـلًا كهربائيًـا ، موجبًـا عـلى طـرف وسـالبًا عـلى الطـرف الآخـر ، وعندمـا تصـل الطاقـة الضوئيـة إلى الخليـة تتحـرر الالكترونـات مـن الـذرات ، ثـم تقـوم فوتونـات ضـوء الشـمس بتحفيـز الإليكترونـات إلى حالـة أعـلى مـن الطاقـة لتولـد الكهربـاء ، ليتـم تجميـع الالكترونـات عـلى شـكل تيـار كهربـى فى نهايـة الأمـر.

بـدلًا مـن المرايـا قـام دكتـور حسـام بإجـراء تجـارب عـلى عـدد مـن العدسـات تتركـب بنظـام يجعلهـا تجمـع الضـوء فى حـزم إشـاعية مركـزة تتجـه لتصـب فى بـؤرة يتـم تسـخينها إلى درجـة الاحـتراق ، البـؤرة توجـد فى قلـب موتـور داخـل غرفـة مـن الزجـاج الحـرارى المضـاد للكسـر ، تـم تصميمهـا لتعمـل كغرفـة احـتراق مثـل التـى توجـد فى المواتـير البخاريـة المعروفـة منـذ القـرن التاسـع عـشر.

بـدلاً مـن الفحـم يوجـد داخـل غرفـة الاحـتراق نسـيج مـن الألـياف الزجاجيـة الحراريـة عندمـا تشـتعل بـه النـار نتيجـة لتعرضـه لحـزم الضـوء المركـز ، يُنتـج حـرارة أكـبر بعـدة أضعـاف مـن تلـك التـى ينتجهـا الفحـم.

هـذا النسـيج الحـرارى هـو أحـد اختراعـات الدكتـور حسـام وفريـق

البحث الذى يعمل معه، وما زالت التركيبة التى يتكون منها سرية ، لا ينتجها على مستوى العالم سوى المصنع الذى أسسه الدكتور والموجود فى هذه المدينة ، يحتاج الموتور إلى استبدال النسيج كل أسبوعين مرة مع طاقة عمل تمتد من شروق الشمس إلى غروبها.

بواسطة الطاقة الحرارية الناتجة من غرفة الاحتراق يغلى الماء الموجود فى مواسير متصلة بها ، يتحول إلى بخار يدفع المكابس الزجاجية بقوة محولًا الطاقة الحرارية إلى طاقة حركية ، من الإضافات المبتكرة فى هذا الموتور أن تكون المكابس من الزجاج المقاوم للحرارة حتى تقل نسبة الاحتكاك إلى اقصى ما يمكن ، يقوم مصنع آخر بتصنيعها ، تعمل حركة المكابس على تدوير العجلة التوربينية المتصلة بمولد كهرباء ، لتتحول طاقة الشمس فى نهاية الأمر إلى طاقة كهربائية قادرة على تشغيل جميع الأجهزة الموجودة داخل البيت ، وكذلك يُخزن فائض الكهرباء فى بطاريات تعمل طوال الليل.

اتجه الدكتور حسام بنفسه نحو المحرك الشمسى وفحص أجزاءه ، أدار علبة العدسات بعيدًا عن الشمس وأخذ فى تلميعها بقطعة قماش تشبه القطيفة ، وهذا من عيوب الجهاز القليلة ، أن العدسات بحاجة إلى تلميع وإزالة الغبار عن سطحها بشكل دائم ، بعد أن انتهى ثبت علبة العدسات فى وضعها الصحيح بمواجهة الشمس ، وابتعد خطوتين إلى الخلف ، بعد خمس ثوان دار الموتور وصدر عنه أزيز خفيف لا يكاد يُسمع.

المنطقة الصناعية القريبة من المدينة تقع على مساحة شاسعة ، بها عدد من المصانع المتخصصة فى إنتاج مخترعات الدكتور حسام ، التى لها علاقة بالزجاج بأنواعه الكثيرة والألياف الزجاجية والعدسات (د.حسام) ماركة عالمية ولها سمعة طيبة كعلامة تجارية موثوق بها فى جميع دول العالم ، اهتم الدكتور بالزجاج بشكل خاص واستطاع مع مساعديه تطوير صناعته وانتاج أنواع فائقة الصلابة أصبحت

تُستخدم فى مجالات متعددة.

الرمل هو المادة الخام الأساسية التى تقوم عليها صناعات الزجاج فى المدينة ، والموجود منه فى الصحراء المحيطة يُعد من أفضل الأنواع فى العالم ، نقى ،لامع ، شفاف وله درجة صلابة مثالية لعمليات التشكيل والتصنيع.

***

دخل دكتور حسام الفيلا وخلفه حفيده عمر وحولهما عدد من فريق البحث التابع للدكتور ، أخذ يتفحص المرافق والحجرات ونظام الإضاءة وبطاريات الكهرباء ، وانتشر مساعدوه ليتأكدوا أن جميع الأجهزة الكهربائية تعمل بكفاءتها المعتادة فى الفيلا النموذج.

بعد نصف ساعة تقريبًا تأكدوا أن كل الأجهزة تعمل على ما يرام ، ظل عمر بجانب جده يراقبهم وهم يعملون ، يتابع بعينيه تحركهم وانهماك كل واحد منهم فى عمله بجدية وفى صمت ، كان جميع أفراد طاقم المساعدين يشعرون بشىء من التوتر ، بسبب الأخبار التى وصلتهم عن نجاح الأسيويين فى إنتاج نوع جديد من الألياف الحرارية يقترب فى جودته من المُنتج فى مصنع المدينة ، يتحمل الاحتراق لمدة أسبوع واحد ، لكنهم فى طريقهم لتطويره لن يتوقفوا حتى يتمكنوا من إنتاج وقود حرارى يماثل المصرى ، يعملون بجدية وينافسون بلا هوادة.

فريق المساعدين يعلم أن الطريق الوحيد أمامهم هو العمل على تحسين صفات الألياف التى ينتجها المصنع ، لكن هذا ليس أمرًا سهلًا.

***

قال دكتور حسام بعد خروجه من الفيلا ، إنه يريد أن يتمشى لبعض الوقت قبل أن يذهب إلى المصنع الجديد ، وطلب من أفراد

فريق العمل المساعد له أن يسبقوه إلى هناك ، أراد الدكتور إيهاب ، المساعد الأول لدكتور حسام ، أن يبقى برفقة رئيسه معلنًا عن رغبته فى التمشية هو أيضًا.

قطع الدكتور مساحة المروج الواسعة التى تفصل الفيلا عن شوراع المدينة ، وبجانبه حفيده الشاب ومساعده وعلى مقربة منهم أفراد طاقم الحراسة ، بينما ظلت السيارة الخاصة للدكتور تتبعهم على مقربة فى الطريق المخصص للسيارات.

الشوارع هادئة فى المنطقة القريبة من الفيلا ، فيلات من طابق واحد أو طابقين حول كل منها حديقة ، أكثر من نصفها ما زالت غير مسكونة بعد ! بعض الأمهات يجلسن داخل تلك الحدائق مع أطفالهن الذين يلعبون ألعاب الكرة أو بعض الألعاب الأخرى بهدوء ، لا أحد يسير فى الشوارع فى هذا الوقت من اليوم.

وصلوا إلى أول الميادين فى طريقهم إلى البحيرة ، ميدان واسع حديقته بها أشجار النخيل الملكى – رمز المدينة – ما زال هناك ثلاثة ميادين أخرى حتى يصلوا إلى البحيرة حيث مركز المدينة السياحى ومحلاتها التجارية وكافتيرياتها ، وفنادقها العامرة دائما بالزوار من مختلف الجنسيات.

كان عقل الدكتور حسام الذى لا يتوقف عن التفكير مشغولًا وهو يمشى بعدة موضوعات ، على رأسها جهاز تكثيف بخار الماء الذى سينتج فى المصنع الجديد !

تخطيط المدينة وكل ما فيها من شوارع وميادين وحدائق وبيوت ومصانع وفنادق ومنتجعات سياحية ومناطق زراعية ، تم تحت إشراف فريق من العلماء فى مختلف التخصصات والخبراء الاقتصاديين يرأسه الدكتور حسام ، وما زال هذا الفريق يعمل على إدارة المدينة وتنمية اقتصادها وصيانة مرافقها.

***

بعد ربع ساعة من المشى وصلوا إلى البحيرة ، توقف دكتور حسام للحظات وهو على مشارفها يتأمل صفحة المياه الزرقاء بمساحتها الشاسعة ، ورؤوس النخيل تبدو من بعيد وهى تطوقها ، بدأت ضجة المصطافين وتجمعاتهم على الشاطئ تتجلى مع تقدمهم ، الشوارع والكافتيريات تزدحم بأعداد كبيرة ونشاط لا يتوقف طيلة النهار ، يأتون من معظم دول أوروبا وغيرها من بلاد العالم إلى منتجع البحيرة ، القرى السياحية كاملة العدد طوال أشهر الصيف ، أصحاب اليخوت من الأثرياء يصلون بالقطار الذى يسير بمحاذاة القناة التى تربط البحيرة بالبحر ، يتركون يخوتهم فى مرسى مخصص عند مدخل القناة ، وبعد أن تُنقل أمتعتهم إلى القطار يستمتعون برحلة ممتعة ومريحة بجوار القناة حتى يصلوا إلى البحيرة.

كانوا فى طريقهم إلى المصنع الجديد الذى على وشك أن يبدأ العمل فى انتاج أجهزة تكثيف الرطوبة وتحويلها إلى ماء ، انهمك دكتور حسام ومساعده إيهاب فى مناقشة الخطوات الأخيرة للتصنيع.

فكرة الجهاز بسيطة استلهمها فريق البحث من ملاحظة عابرة ! لكنها فى غاية الأهمية بالنسبة لمدينة صحراوية ، استخلاص الماء من رطوبة الجو ، وتكثيفه ليتحول إلى قطرات مائية ، مثلما يحدث فى أجهزة التكييف ، التى يخرج منها الماء بشكل هامشى لا يُستفاد به.

العمل مر بمراحل عديدة من التجارب للوصول إلى التصميم الأمثل ، جربوا أنواعًا من تركيبات غاز الفريون وغيره إلى أن توصل فريق البحث إلى التركيبة المثالية ، وابتكروا نماذج للمواسير التى يتكثف بها بخار الماء ويمر عبرها حتى يعطى الجهاز أكبر كمية بأقل طاقة.

هذا الاختراع الجديد عندما يكتمل ويبدأ المصنع فى إنتاجه سوف

يوفر كمًا كبيرًا من ماء الشرب النقى لكل مسكن ، ويخفف الضغط على محطات تحلية ماء البحيرة ، التى تنتج بالكاد ما يكفى حاجة الناس من الماء ، نحن الآن فى المرحلة النهائية ، لم تبق سوى اللمسات الأخيرة ليبدأ المصنع فى الانتاج ، قال الدكتور فى ختام مناقشته مع مساعده وهما يقتربان من المصنع :

– سيكون هذا الجهاز فتحًا جديدًا فى تعمير الصحراء وقدرة الإنسان على الحياة بها !

obeikandl.com

صدر للكاتب

1- الملكُ ينزل المدينة – مجموعة قصصية – دار ميريت 2006

2- خيانة الجسد – مجموعة قصصية – 2008

3- مصير بيكاسو – رواية – دار الحضارة – 2009

4- مولانا – رواية – دار الحضارة – 2010

5- ليلة التحرير – رواية – دار الحضارة – 2011

6- مراكب الليل – رواية – دار الحضارة – 2012

7- سجن الطاووس – رواية – دار الحضارة – 2014

8- عطر الغرام – رواية دار الحضارة - 2015

9- مراكب الليل - رواية - طبعة رابعة - دار دلتا للنشر والتوزيع - 2017

الجوائز

1- جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب لعام 2013 عن رواية " مولانا "

2- جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2014 عن رواية " سجن الطاووس"

obeikandl.com

الفهرس

صاحب المنصب الرفيع	5
فى انتظار الجرس	13
الهجوم	25
البحث عن شاعر	37
اللحن	45
الملف	53
غراب عجوز	61
الوكر	69
فانوس مكسور	75
مرفت وحموده	79
النافذة مغلقة	85
هز الذيل	89
الكابوس الآتى	95
مجرد هواء	103
مطر الصحراء	109

obeikandl.com

obeikandl.com